في ظلال الإسلام

٢١

نبي الإسلام
في مرآة الفكر الغربي

أ. د. عز الدين فراج

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

طباعة وتوزيع دار المعارف

الآراء الواردة فى هذا الكتاب تعبر عن وجهة نظر
المؤلف ولا تعبر عن وجهة نظر الناشر

تصميم الغلاف: هاجر محمود

تنفيذ المتن والغلاف
بقطاع النظم وتكنولوجيا المعلومات
دار المعارف

الناشر: دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – ج. م. ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg
http://gate.dar-elmarf.com

بين يدى هذا الكتاب

الغـرب ليس شـيئا واحـدا.. ومنهـاج التمييز- فـى الغرب- بين الإيجابيات والسـلبيات هو منهاج إسـلامى أصيل، أكـد عليه القرآن الكريم عندما تحدث عن «الآخرين» فقال:

﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾

(آل عمران: ١١٣)

ولذلك فعلى العقل المسـلم أن يميز فى «الآخر الغربى» بين «الإنسان الغربـى» الذى لا مشـكلة لنا معه، و«العلم الغربـى»، الذى فيه ما هو «مشـترك إنسـانى عام» كالماء والهـواء، تتلمذ أهله علـى الحضارات الشـرقية- وفى مقدمتها الحضارة الإسـلامية- ويجـب أن نتتلمذ عليه ونسعى إلى طلب حقائقه وقوانينه.. يجب أن نميز- فى الآخر الغربى- بين هذا الإنسـان وهذا العلم وبين مؤسسات الهيمنة الغربية -السياسية والدينية- الطامعة- تاريخيا وحاليا- فى استعمار الشرق لنهب ثرواته، وإلحاقه هامشا للأمن الغربى وتابعا للمركزية الحضارية الغربية.

ولهـذه «الحقيقة المنهجية» فـإن علينا أن نميز فـى «الفكر الغربى» بـين افتراءات الجهـلاء وبين إنصاف العلماء. بالغـرب، وعلينا أن نرد على افـتراءات الجهلاء الغربيـين - الذين يزدرون ديننا ومقدسـاتنا- بالشـهادات الغربية التى أنصفت الإسلام وتحدثت بإعجاب وانبهار عن نبى الإسـلام- عليه الصلاة والسـلام- ولو أن الجاليات الإسلامية- فى الغرب- وعت هذا المنهج، وأعادت نشر الشهادات الغربية التى تنصف

الإسلام وتثنى على رسوله لحدث ترشيد كبير للعقل الغربى المعاصر، الذى تغرقه الآن أكاذيب الإعلام الذى يرتزق أهله من صناعة الكذب على الإسلام والمسلمين.. وصدق الله العظيم: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ (الواقعة: ٨٢).

لقد احترفت مؤسسات الهيمنة الغربية- وخاصة منذ حقبة الحروب الصليبية (٤٨٩- ٦٩٠هـ/١٠٩٦- ١٢٩١م)- التى أرادت بها إعادة اختطاف الشرق من التحرير الإسلامى الذى أنقذ الشرق من غزوة الإسكندر الأكبر (٣٥٦- ٣٢٤ ق.م) التى استمر قهرها عشرة قرون.

احترفت هذه المؤسسات الاستعمارية- السياسية والدينية- «صناعة الكذب والافتراء» لتشويه صورة الإسلام ورسول الإسلام- ﷺ - وذلك لشحن الدهماء والغوغاء فى بلادها فى الحروب الاستعمارية، التى أرادت من ورائها الغزو لاحتلال الأرض ونهب الثروات.. وعلى العقل المسلم أن يقدم للإنسان الغربى المعاصر شهادات علمائه ومثقفيه ومفكريه، التى رصدت هذه الافتراءات بل وسخرت منها، وذلك لتحرير هذا العقل الغربى المعاصر من أسر «ثقافة الكراهية السوداء» التى ترسخت فى المخزون الثقافى الغربى لعدة قرون.

وإذا نحن أردنا الإشارة إلى نماذج من هذه الشهادات الغربية على هذه الافتراءات، فإننا نستطيع أن نشير- على سبيل المثال- إلى شهادة المستشرق الفرنسى الكبير «**مكسيم رودنسون**» **(١٩١٥- ٢٠٠٤م)**- وهو من أصل يهودى- والذى تحدث عن الصورة الغريبة التى صنعها العقل الصليبى لرسول الإسلام- تلك الصورة التى يعاد تقديمها أفلاما ورسوما

ومقالات هذه الأيام!! لقد تحدث «مكسيم رودنسون» عن هذه الصورة الصليبية فقال:

«لقد حدث أن الكُتاب اللاتينيين، الذين أخذوا على عاتقهم بين سنة ١١٠٠م وسنة ١١٤٠م إشباع حاجة الإنسان العامى إلى كراهية الإسلام ورسوله.. أخذوا يوجهون اهتمامهم نحو حياة محمد، دون اعتبار للدقة، فأطلقوا العنان «لجهل الخيال المنتصر» فى الحروب الصليبية.. فكان محمد- فى عرفهم- ساحرا، هدم الكنيسة.. فى إفريقيا والشرق عن طريق السحر والخديعة، وضمن نجاحه بأن أباح الاتصالات الجنسية!.. وكان محمد- كما صورته الملاحم الشعبية الغربية- الصنم الرئيسى الذى يعبده المسلمون!.. وكان معظم الشعراء الجوالة يعتبرونه كبير آلهة البدو.. وكانت تماثيله- حسب أقوالهم- تصنع من مواد ثمينة، وذات أحجام هائلة!!.

هكذا حكى «مكسيم ردونسون» طرفا من الصورة التى زيفها العقل الصليبى لرسول الإسلام، والتى صاغها هذا العقل شعرا وملاحم شعبية أشاعها الشعراء الجوالون باسم الجماهير والدهماء، لتستقر فى مخزون الثقافة الغربية ولتشيع فى الكتب الدراسة، وليستدعيها الرسامون ومنتجو الأفلام فى هذه الأيام!.

وغير شهادة مكسيم رودنسون، يحكى المفكر الألمانى «**هوبرت كومر**»- فى كتابه (صورة الإسلام فى التراث الغربى)- «كيف أن الأوربيين ادعوا أن رسول الإسلام كان كاردينالا كاثوليكيا، تجاهلته الكنيسة فى انتخابات البابا. فقام بتأسيس طائفة ملحدة فى الشرق

انتقاما من الكنيسة. واعتبرت أوربا المسيحية- فى القرون الوسطى- محمدا المرتد الأكبر عن المسيحية، الذى يتحمل وزر انقسام نصف البشرية عن الديانة المسيحية»!.

ويكشف هذا المفكر الألمانى- «هوبرت كومر»- عن أن هذه الصورة الصليبية الزائفة لرسول الإسلام قد شارك فى صنعها كبار الفلاسفة والقديسين والمفكرين الغربيين!.. فأكبر فلاسفة الكاثوليكية «**توما الإكوينى**» (**١٢٢٥- ١٢٤٧م**) يقول عن رسول الإسلام-ﷺ- «إنه هو الذى أغوى الشعوب من خلال وعوده الشهوانية، وقام بتحريف جميع الأدلة الواردة فى التوراة والأناجيل من خلال الأساطير والخرافات التى كان يتلوها على أصحابه ولم يؤمن برسالة محمد إلا المتوحشون من البشر، الذين كانوا يعيشون فى البادية»!.

هكذا زيف أكبر فلاسفة الكاثوليكية صورة نبى الإسلام، الذى جاء بكتاب مصدق لما بين يديه من الكتب السماوية جميعا!.. والذى أعلن أنه لا يفرق بين أحد من رسل الله.. ويا ليت توما الإكوينى كان حيا اليوم ليرى حفاظ الإسلام والمسلمين على الأسرة والعفة، فى الوقت الذى أفلست فيه كثير من «الأبراشيات» الغربية بسبب التعويضات التى تدفع للأطفال ضحايا الاعتداءات الجنسية من كبار وصغار رجال الدين!!.

وإذا كان واقعنا المعاصر يشهد تدنيس المصحف الشريف بل وإحراقه- من قبل كنائس بروتستانتية غربية- فإن المفكر الألمانى «هوبرت كومر» يكشف لنا حقيقة أن هذه الكنائس البروتستانتية إنما تغترف من ثقافة الكراهية السوداء التى وضع أسسها زعيم البروتستانتية «**مارتن لوثر**»

(١٤٨٣- ١٥٤٦م) الذى وصف القرآن الكريم بأنه: «كتاب بغيض وفظيع وملعون وملىء بالأكاذيب والخرافات والفظائع»!!.. ثم نصح أتباعه بتزييف صورة القرآن، فبدلا من فهم آياته ومقاصده، دعا إلى استخدام الصورة المزيفة لترجمة القرآن فى «إزعاج محمد والإضرار بالمسلمين.. فيجب أن تكون هذه هى المقاصد من وراء ترجمة القرآن وتعرف المسيحيين عليه.. وعلى القساوسة أن يخطبوا أمام الشعب عن فظائع محمد، حتى يزداد المسيحيون عداوة له، وأيضا ليقوى إيمانهم بالمسيحية، ولتتضاعف جسارتهم وبسالتهم فى الحرب ضد الأتراك المسلمين، وليضحوا بأموالهم وأنفسهم فى هذه الحروب»!! - كما قال مارتن لوثر!

أما المستشرقة الألمانية «**سيجريد هونكه**» **(١٩١٣- ١٩٩٩م)** فإنها تحكى- فى كتابها (العقيدة والمعرفة)- كيف صورت الكنيسة الأوربية «بلاد الإسلام عالما من الخرافات والأساطير، عبدة الشيطان، والسحرة المتضرعين إلى الشيطان.. بلاد الأضاحى البشرية من أجل صنم ذهبى، تسهر على سلامته عصبة من الشياطين اسمه محمد»!!.

وكى لا يصاب البعض باليأس والقنوط والإحباط من إمكانية إزالة هذه الصورة «الكريهة والشوهاء» التى صنعها العقل الصليبى للإسلام ورسوله ومقدساته.. علينا أن نفتح الأبواب للشهادات الغربية الرائعة التى أنصفت رسول الإسلام، وجعلته المثل الأعلى للأنبياء والمصلحين على امتداد التاريخ.. وذلك لنطبق المنهاج القرآنى ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ ولنرد على افتراءات الجهلاء بإنصاف العلماء.. ولنزيل سيئات الغربيين بحسنات الغربيين!.

لقد استخدم الكاتب الإنجليزى «**توماس كارليل**» **(١٧٩٥- ١٨٨١م)** المنطق العقلى فى إنصاف الإسلام وتعظيم رسوله، فقال: «لقد ظلت الرسالة التى دعا إليها هذا النبى سراجا منيرا مدة اثنى‌عشر قرنا من الزمان لملايين كثيرة من الناس.. وهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التى عاشت عليها هذه الملايين وماتت عليها أكذوبة كاذب أو خديعة مخادع؟!.. إن الرسالة التى أداها محمد لهى الصدق والحق، وما كلمته إلا صوت حق صادر من العالم المجهول.. وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء».

وعلى درب الإنصاف هذا يسير الفيلسوف الاجتماعى الأيرلندى الشهير «**برنارد شو**» **(١٨٥٦ - ١٩٥٠م)** الذى قال عن رسول الإسلام ﷺ كلاما نفيسا.. والذى تنبأ بما نراه اليوم من إقبال الأوربيين على اعتناق الإسلام قال: «إن محمدا هو منقذ الإنسانية.. وإننى أعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم فى العالم كله لتم النجاح فى حكمه، ولقاده إلى الخير وحل مشكلاته حلا يكفل للعالم السلام والطمأنينة والسعادة المنشودة.

لقد تنبأت بأن «دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا فى الغد القريب وقد بدأ يكون مقبولا لديهم اليوم.. ولقد بدأت أوربا تعشق عقيدة محمد، وأن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ، وفى القرون القادمة قد تذهب أوربا إلى أبعد من ذلك فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشاكلها»!.

نعم.. لقد رأى «برناردشو»- ببصيرة قلب الفيلسوف- أن أوربا «ستعترف بفائدة الإسلام فى حل مشاكلها».. وبعد قرون من هذه

النبوءة، كتبت المجلة الفرنسية الرصينة (**التحديات**) سنة ٢٠٠٨م- إبان زيارة بابا الفاتيكان لفرنسا- عن أن الإسلام هو الحل لأزمة الرأسمالية الغربية- وليست تعليمات البابا!- فقالت:

«إنه فى حين يمر العالم بأزمة مالية تجتاح جميع معالم النمو فى طريقها، يجب علينا قراءة القرآن بدل نصوص البابوية ولو طبق رجال البنوك- الطامعون بالمردود السريع على الأموال الخاصة- ولو قليلا الشريعة الإسلامية، ومبدأها المقدس: «المال لا ينتج المال»، فإننا لم نكن لنصل إلى ما وصلنا إليه»!.

بل وكتبت مجلة الفاتيكان «**أوسير فاتور رومانو**» فى ذات العام تقول:

«إن التعليمات الأخلاقية التى ترتكز عليها المالية الإسلامية قد تقوم بتقريب البنوك إلى عملائها بشكل أكثر من ذى قبل، فضلا عن أن هذه المبادئ قد تجعل هذه البنوك تتحلى بالروح الحقيقية المفترض وجودها فى كل المؤسسات التى تقدم خدمات مالية؛ فبريق الصيرفة الإسلامية هو الحل للمأزق الذى يمسك بخناق البنوك الغربية!».

هكذا وضع علماء غربيون الإسلام مثلا أعلى... وتنبأ بعضهم بظهور الإسلام على الدين كله، ولو كره المشركون والكافرون والمفترون.

إن الشهادات الغربية التى أنصفت رسول الإسلام ﷺ والتى ارتفعت به وبرسالته إلى مكان المثل الأعلى عبر القرون والحضارات إنما هى معين لا ينضب، للرد على افتراءات الجهلاء الذين احترفوا ازدراء الإسلام ورسوله ومقدساته.. كما أنها زاد طيب يغذى «العزة الإسلامية»

و «الكبرياء الإسلامى المشروع» الذى يكسر شوكة النظرة الدونية التى يصنعها نفر من الغربيين للإسلام والمسلمين.

وعلى درب هذه الشهادات الغربية، تأتى شهادة شاعر فرنسا الشهير والكبير «**لامرتين**» (**١٧٩٠– ١٨٦٩م**) التى يقول فيها عن رسول الإسلام– ﷺ–:

«إن حياة محمد وقوة تأمله وتفكيره وجهاده ووثبته على خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته، وثباته ثلاثة عشر عاما يدعو دعوته وسط أعدائه، وتقبله سخرية الساخرين والهازئين، وحميته فى نشر دينه، وإيمانه بالفوز، ورباطة جأشه، وتطلعه إلى إعلاء كلمة الله، كل ذلك يدل على أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش باطلا.

وهذا اليقين الذى ملأ روحه هو الذى وهبه القوة على أن يرد إلى الحياة فكرة عظيمة وحجة قائمة ومبدأ مزدوجا، وهو وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة. الأولى تدل على من هو الله، والثانية تنفى ما ألصقه الوثنيون به. الأولى حطمت آلهة كاذبة، والأخرى فتحت طريقا إلى الفكر والتأمل.

لقد كان محمد فيلسوفا وخطيبا ومشرعا وقائدا وفاتح فكر، وناشر عقائد تتفق مع العقل، ومنشئ عشرين دولة فى الأرض، وفاتح دولة فى السماء من الناحية الروحية.

أى رجل قيس بجميع هذه المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الإنسانية كان أعظم منه؟! ولو كان مقياس العظمة هو إصلاح شعب متدهور، فمن ذا يطاول إلى مكان محمد؟!

لقد سما بأمة متدهورة، ورفعها إلى قمة المجد، وجعلها مشعلا للمدنية وموردا للعلم والعرفان.

ولو كان مقياس العظمة فى توحيد البشرية المفككة الأوصال، فمن أجدر بهذه العظمة من محمد، الذى جمع شمل العرب وجعلهم أمة عظيمة وإمبراطورية شاسعة؟! ولو كان مقياس العظمة هو إقامة حكم السماء على الأرض، فمن ذا الذى ينافس محمدا، وقد محا مظاهر الوثنية ليقيم عبادة الخالق وحده؟!. ولو قسنا العظمة بالنصر الحربى، والنفوذ والسلطان، فمن يدانيه فى هذا المضمار؟!. لقد كان يتيما لا حول له ولا قوة، فأصبح ملكا عظيما، ومؤسسا لإمبراطورية دامت ثلاثة عشر قرنا من الزمان. ولو كان مقياس العظمة هو الأثر الذى يخلده فى النفوس على مر الأجيال. فها هو محمد يمجده مئات الملايين من الناس فى مختلف البقاع، مع تباين أوطانهم وألوانهم وطبقاتهم».

وعلى درب هذه الشهادة – شهادة الصدق– التى تقطر كلماتها الذهبية بالمحبة والإخلاص، والتى يشيع المنطق العقلى فى سطورها وعباراتها –شهادة شاعر فرنسا الأشهر «لامرتين»– يسير المستشرق الفرنسى «**إميل درمنجم**».. الذى تحدث عن رسول الإسلام– بعد دراسة لآثاره وتاريخه– فقال:

«لقد جاء نبى الإسلام يدعو العلماء ليفقهوا ما يقولون، وليقوم ما يتيه فيه الحكماء من الطرق المعوجة فالناس حين يستمعون لكلامه الموحى إليه به يعود إليهم سابق اتصالهم بالسر المحيط بهم، مهتدين إلى مبدأ حى لا يجدون مثله فى نصائح الفلاسفة وأقطاب السياسة والاجتماع.

ويكفى أن نشير إلى أن نبى الإسلام قد ظهر فى وقت من أشد أوقات التاريخ ظلاما، فى وقت كانت فيه الحضارة مضطربة متداعية.

ولقد كان القرآن هو معجزة محمد الوحيدة، فأسلوبه المعجز، وقوة إيحائه التى لا تزال لغزا إلى يومنا هذا، يثيران ساكن من يتلونه، ولو لم يكونوا من الأتقياء العابدين، وكان محمد يتحدى الإنس والجن أن يأتوا بمثله.. ولا ريب فى أن كل آية منه، ولو أشارت إلى أدق حادثة فى حياته الخاصة، تأتيه بما يهز الروح بأسرها من المعجزة العقلية.

ولا يستطيع أحد أن يشك فى إخلاص محمد، فحياته- مهما كانت وجهة النظر فيها- شاهدة على اعتقاده صدق الأمانة الثقيلة التى حملها ببطولة، كما كانت قوة إبداعه، وعبقريته الواسعة، وذكاؤه العظيم، وبصره النافذ، وقدرته على ضبط نفسه، وعزمه المكين، وحذره وحسن تدبيره، وطراز عيشه.. كلها شاهدة على صحة عقل هذا النبى الموهوب الذى أوحى إليه بمعجزة القرآن».

وعلى حين افترى كثير من الغربيين- ومن المتغربين- على موقف الإسلام ورسوله ﷺ من المرأة.. وجدنا المستشرق الفرنسى الكبير «**أندريه سرفيه**» يكشف الزيف عن هذا الجانب من رسالة رسول الإسلام، ويعلن أن محمدا هو «محرر المرأة».. ويقول:

«لقد حرر محمد المرأة العربية، ومن أراد التحقيق بعناية هذا النبى بالمرأة فليقرأ خطبته فى حجة الوداع التى أوصى فيها بالنساء خيرا، وليقرأ أحاديثه الكثيرة.. «**اتقوا الله فى النساء، واستوصوا بهن خيرا**».

لم يتحدث هذا النبى عن المرأة إلا فى لطف وأدب.. وكان يجتهد

دائما فى تحسين حالها ورفع مستوى حياتها.. لقد كان النساء قبله لا يرثن، بل كن متاعا يورث لأقرب الرجال، وكأنهن مال أو رقيق. وعندما جاء الرسول قلب هذه الأوضاع، فحرر المرأة، وأعطاها حقوقها».

وعلى حين افترى غربيون.. ولا يزالون يفترون، فيزعمون أن رسول الإسلام ﷺ قد نشر دينه بالسيف والعنف والإكراه.. فلقد شهد المستشرق الفرنسى الكبير «**الكونت هنرى دى كاسترى**» (١٨٥٠- ١٩٢٧م) على أن العقل والمنطق والموعظة الحسنة كانت هى السبل التى انتشر بها الإسلام.. فقال:

«ليس هناك مثل واحد يذكر للدلالة على أن محمدا أرسل حملة واحدة يحمل فيها أمة بالقوة على اعتناق الإسلام. وليست هناك حادثة واحدة سأل فيها النبى إنسانا أن يؤمن به وسامه العذاب عندما رفض ذلك. لم يحدث شىء من هذا قط، بل على النقيض منه، فقد عمل الكافرون جاهدين على ارتداد المسلمين عن دينهم.

ولقد لجأ أتباع محمد إلى الفتح، وهو سبب لا حرج فيه، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشهم المظفرة التى سارت سير الصواعق إلى الشام وشمال إفريقيا وعبر البحار، إلا إنهم مع ذلك لم يتركوا أثرا للظلم والتعسف فى طريقهم، فلم يقتلوا أمة أبت الإسلام.

ولما استولى **عمر بن الخطاب** على مدينة أورشليم لم يلحق بالمسيحيين أى ضرر ولكن عندما استولى المسيحيون- (الصليبيون)- على تلك المدينة قتلوا المسلمين من غير إشفاق، وأحرقوا اليهود بلا رحمة.

لقد انتشر الإسلام فى جميع القارة الآسيوية بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر، ولم ينشأ عنه عسف ولا اضطهاد حتى إن حكام المسلمين

احترمـوا مدينة «بيناريس» لاعتبارها عند الهند مدينة مقدسـة، مع أن أهلها كانوا وقتئذ من البراهمة. ومن هذا يتحقق أن الدين الإسـلامى لم ينتشـر بالعنف والقوة، بل الأقرب للصواب أن يقال: إن كثرة مسـالمة المسلمين ولين جانبهم كان سببا قويا فى انكماش دولتهم بعد ذلك!.

وإن أكبر دليل على أن الإسلام قام على أكتاف البيان والحجة، قبل أن يقوم على السيف، بقاء الإسلام موطد الدعائم بالرغم من ضعف الدولة العربية الكبرى، دون أن تعود أى أمة إلى ما كانت عليه».

وعلـى حين زعم بعض الغربيين انتفاء تميز الإسـلام عن الشـرائع الدينية السـابقة، لمح الكاتب الأمريكى الجنرال «**ر.ف بودلى**» (**١٥٤٥-١٦١٣م**) امتياز الإسـلام بجمعه بين الروح والمادة.. بين الدين والدنيا.. وجمعه كذلك بين قوة الدولة وبساطة أهل القلوب.. فقال:

«لقد كان محمد على نقيض من سـبقه مـن الأنبياء.. فإنه لم يكتف بالمسـائل الإلهية، بل تكشـفت له الدنيا ومشـاكلها فلم يغفل الناحية العلمية الدنيوية فى دينه، فوفق بين دنيا الناس ودينهم، وبذلك تفادى أخطاء من سـبقوه من المصلحين الذيـن حاولوا خلاص الناس عن طريق غير عملى لقد شـبه الحياة بقافلة مسافرة يرعاها إله، وأن الجنة نهاية المطاف.

ولقد أوضح محمد، منذ اللحظة الأولى، أن الإسلام يقوم على البسـاطة، ولقـد اعتنق أصحابه تلك المبادئ حتى بعـد موته.. وحتى عندما حقق النبـى انتصـاره الأكبر، ودخل مكة، وحطم أصنـام الكعبة، وأتم فيها أهم جزء من رسـالته بتطهير بيت الله مـن الأوثان، نام على قطعة من

الحصير، كما كان ينام وهو أجير يقود القوافل للقرشيين ولخديجة بنت خويلد فلا غرور ولا أبهة.

وعندما كان صوت المؤذن يدعو الناس إلى الصلاة خمس مرات فى كل يوم مناديا: «الله أكبر. الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدا رسول الله» كان هذا الرنين الحلو ينساب من فوق مآذن المساجد فى أنحاء العالم، وأنه لرنين يهز قلوب الناس ومشاعرهم أيا كانت عقيدتهم».

ولقد تجاوزت هذه الشهادات الغرب الأوربى والأمريكى، إلى الشرق الأوربى، فكتب الفيلسوف الروسى «**تولستوى**» (١٨٢٨– ١٩١٠م) يقول: «لقد كان محمد من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة. ويكفيه فخرا أنه هدى أمته برمتها إلى نور الحق. وجعلها تجنح للسلام وتكف عن سفك الدماء، ويكفيه فخرا أنه فتح لها طريق الرقى والتقدم، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا من أوتى قوة وحكمة وعلما.

وفى سنى دعوته الأولى احتمل كثيرا من الاضطهادات، لم تثن من عزمه، بل ثابر على دعوة أمته. ومن فضائل الدين الإسلامى الاعتراف بنبوة موسى وعيسى، والوصية خيرا بالمسيحيين واليهود ورجال دينهم، فلقد أمر بحسن معاملتهم، بل لقد سمح لأتباعه بالتزوج من أهل الديانات الأخرى، ولا يخفى على أصحاب البصائر العالية ما فى هذا من التسامح العظيم».

وإذا كانت **دائرة المعارف البريطانية**– وهى أوثق وأشهر دوائر المعارف الأوربية– قد قالت عن رسول الإسلام ﷺ:

«لقد كان محمد أظهر الشخصيات الدينية العظيمة، وأكثرها توفيقا ونجاحا».

فإن الشهادات المنصفة لدين الإسلام ورسول الإسلام قد تجاوزت

حدود الغرب والشمال إلى الشرق والجنوب.. فقرأنا لزعيم الهند وناسكها ومحررها وشهيدها المهاتما «غاندى» (١٨٦٩– ١٩٤٨م) قوله:

«لعلاقتى الوثيقة بالمسلمين، وللألفة والصداقة التى جمعت بينى وبين كثيرين منهم، والتى لم تتراخ على مر السنين، فلقد شعرت برغبة فى دراسة حياة الرسول الكريم وشرعت بذلك فى إفريقيا الجنوبية. إلا أنى لم أكن فى ذلك الحين ملما باللغة الأوردية إلماما كافيا.

ولقد أتاح لى سجنى المتتابع فرصة قراءة كتب سيرة هذا النبى الكريم.. ولقد أدت بى هذه الدراسات إلى الاعتقاد بأن القرآن والتوراة كتابان مقدسان. فقدستهما أنا بنفسى، كما أقدس كتابينا: «الويدا» و «غيتا».

لقد كان محمد نبيا عظيما، وكذلك كان المسيح. ولقد أصبحت أعتقد أنهما كانا لا ينشدان إلا الحق، وكانا يخافان الله.

لقد لاقى محمد كثيرا من الاضطهادات، ولكنه كان شجاعا، لم يخف غير الله، ولم يرهب أى إنسان.

كان النبى العظيم فقيرا، زاهدا فى متاع الدنيا، فى الوقت الذى كان يستطيع فيه أن يكونه ثريا لو أراد.

لقد ذرفت الدموع وأنا أقرأ تاريخ ذلك الرجل العظيم، إذ كيف يستطيع باحث عن الحقيقة مثلى أن لا يطأطىء الرأس أمام هذه الشخصية التى لم تعمل إلا من أجل البشرية كلها»؟!.

* * *

تلك نماذج من شهادات كوكبة من العلماء العظماء لنبى الإسلام ورسول الإنسانية ورحمة الله للعالمين.. يستطيع العقل المسلم أن يرد

بها على الافتراء والازدراء الذى يصدر من السفهاء الجهلاء ضد الإسلام ورسوله ورموزه ومقدساته.. ذلك أن منهاج:

﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ (يوسف: ٢٦)

والإيمان بأن «الآخرين ليسوا سواء».. هما منهاجان أصيلان من مناهج «التدافع الفكرى» فى حضارة الإسلام..

وصدق الله العظيم إذ يقول:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾(فصلت: ٣٣- ٣٥).

* * *

إنها قبسات اقتبسناها من هذا الكتاب الرائع، الذى قدمه العالم الجليل الأستاذ الدكتور **عز الدين فراج**- قبل ستين عاما- سنة ١٩٥٣م- كتاب (نبى الإسلام فى مرآة الفكر الغربى).. والذى نقدمه للقراء فى ذكرى ميلاد الحبيب محمد بن عبد الله- عليه الصلاة والسلام-.

سائلين المولى- سبحانه وتعالى- أن ينفع به.. إنه خير مسئول وأكرم مجيب.

دكتور محمد عمارة

مقدمة

تخرج لنا دور النشـر والصحافة والإذاعة فى الشـرق كل يوم صورا متباينة عن عظمة نبينا الكريم وسيرته العطرة، بأقلام شرقية، وعقليات إسـلامية. ولكن الشـيء الذى تتوق إليه عقولنا بـين حين وآخر هو أن نعرف كيف صور قادة الفكر الغربى عظمة هذا الرسول فهؤلاء بعقلياتهم المختلفة وتفكيرهم المتباين ومنطقهم الخاص، يفتحون أمامنا آفاقا جديدة من التأمل والتفكير، ويخلعون على حياة هذا الرسـول ألوانا جديدة من الإجلال والإكبار، ويضيفون إلى سـيرته صورا شـائقة قشيبة من العظمة والعبقرية.

وليسـت هذه الصور الرائعة المجيدة منبعثة من مكان واحد، بل هى صيحات تجاوبت أصداؤها بين لندن وباريس ونيويورك وموسكو.

وليسـت هذه السـيرة المجيدة منبعثـة من جوانب مفكـر واحد أو فيلسـوف واحد، بل منبعثة من مفكرين وفلاسفة، اختلفت أجناسهم، وتنوعت أقطارهم وتباينت عصورهم.

فهـذه صيحة أرسـلها الكاتـب الإنجليزى الكبير **توماس كارليل (١٧٩٥- ١٨٨١م)** يقول فيها: «لقد ظلت الرسـالة التى دعا إليها هذا النبـى سـراجا منيرا مدة اثنى عشـر قرنا من الزمـان لملايين كثيرة من الناس.. وهل من المعقول أن تكون هذه الرسـالة التى عاشت عليها هذه الملايين وماتت عليها أكذوبة كاذب أو خديعة مخادع؟!».

وهذه صيحة ثانية أرسلها «**لامرتين**» (**١٧٩٠– ١٨٦٩م**) شاعر فرنسا الكبير يقول فيها:

«إن حيـاة محمد وقوة تأمله وتفكيره وجهـاده ووثبته على خرافات أمته، وجاهلية شـعبه وخزعبلات قبيلته، وثباته ثلاثة عشر عاما يدعو دعوته وسـط أعدائه، وتقبله سخرية الساخرين والهازئين، وحميته فى نشر دينه، وإيمانه بالفوز، ورباطة جـأشه، وتطلعه إلى إعلاء كلمة الله، كل ذلك يدل على أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل».

وهذه صيحة ثالثة أرسـلها **تولستوى** (**١٨٢٨– ١٩١٠م**) أكبر كاتب قصصى فى روسيا يقول فيها: «ويكفى محمد فخرا أنه هدى أمة برمتها إلى نور الحق وجعلها تجنح للسـلام وتكف عن سـفك الدماء.. ويكفيه فخـرا أنه فتح لها طريق الرقى والتقدم.. وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا من أوتى قوة وحكمة وعلما».

وهذه صيحة رابعة أرسلها **برناردشو** (**١٨٥٦– ١٩٥٠م**) أكبر فلاسفة الإنجليز فى العصر الحديث يقول فيها:

«إننى أعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم فى العالم كله لتم النجـاح فى حكمه ولقاده إلى الخير، وحل مشـكلاته حلا يكفل للعالم السلام والطمأنينة والسعادة المنشودة».

هـذه صيحات صادقـة انبعثت من الغرب تحمـل ألوانا جديدة من المنطق والبحث والتفكير، وتخلع على سـيرة نبينا الكريم صورا جديدة من العظمة والعبقرية.

فجديـر بنا إذن أن نسـتمع بين حـين وآخر إلى صيحـات الغرب وتأملاته وفلسفاته.

العالم قبل الدعوة المحمدية
فى مرآة الفكر الغربى

لكـى يفهم القارئ دعوة من الدعوات يلزمنا أولا الإلمام بحال الداعى فـى ذاته.. ولأجـل أن ندرك قدر دعوته يجـب أن نعرف الحال التى كانت عليها البشـرية قبل هذه الدعوة حتى ندرك قيمتها، وما صاحبها من جهد وجهاد.

جـون لا بوم (١٨٠٦- ١٨٧٦م) يصور العـالم وبلاد العرب قبل الدعوة المحمدية:

كان العـالم قبل مولد هـذا النبى مملوءا بغيـوم الاضطرابات والفتن والقلاقل، ففى إنجلترا كان «الأنجلو» ينازعون السكسونيين، وفى فرنسا كان أولاد «كلوفيـس» (٤٦٥– ٥١١م) متخاصمـين متحاربـين. أما فى إيطاليا فكان اسـم الرومان، وهو ذلك الاسـم الشـامخ، قـد فقد هيبته القديمـة، وكانت روما، وهى رأس ذلك التمثال الكبير المتهشـم، تترنح وتضطرب، كلما ألم بها طائفة من ذكريات عظمتها الراحلة.

أمـا فى إفريقيا فـكان اليونانيون والرومانيون أنفسـهم، وهم أخلاط من عسـاكر وتجار وحكام، دائبين على امتصاص دم مصر، سـاعين فى جعلها كالجثة الهامدة لا حس فيها ولا حركة.

وخلاصة القول: كان العالم مضطربا إلى حد كبير، وكان اعتماد الناس على وسائل الشر والبطش أكثر من اعتمادهم على وسائل الخير والإخاء.

واستطرد جون لابوم يقول: «كان فى بلاد العرب قبل الرسالة المحمدية ثلاثة أديان:

(١) الموسوية.

(٢) العيسوية.

(٣) الوثنية.

وكان اليهود من أشد الناس تمسكا بدينهم وأكثرهم حقدا على من يخالف معتقداتهم. وكان من النادر أن تجد اضطهادات دينية فى تاريخ العرب الأقدمين. وما وجد من هذه الاضطهادات فمنسوب إلى اليهود وحدهم.

أما الوثنيون فكانوا يمثلون السواد الأعظم من أهل البلاد. وكان لكل قبيلة منهم آلهة خاصة بهم. وكان لهم آلهة من الملائكة والجن والكواكب، وكانوا يعتقدون أن الملائكة بنات الله، فيتخذونهم شفعاء لهم عند الله، ويعبدونهم ويتوسلون بهم عنده. وكان منهم من يعبد الكواكب فكنعان كانت تدين للقمر، وكانت حمير تعبد الشمس، وكان بنو لخم يسجدون للمشترى.. وهكذا.

وكان العرب مغرمين بشرب الراح ولعب الميسر.. وكان من عادتهم أن يتزوج الرجل من النساء بقدر ما تسمح به أحواله المعيشية والمالية. وكان له أن يطلقهن متى شاء هواه، وكانت الأرملة تعد من ضمن ميراث زوجها. ومن هنا نشأت تلك الارتباطات الزوجية بين أولاد الزوج ونساء الأب.. الأمر الذى حرمه الإسلام وعده زواجا ممقوتا.

وكانت المرأة عندهم متاعا يقتنى، وسلعة تباع وتشترى، ولا يهم الرجل ما يصيب الأسرة من تفكك وانحلال وانهيار. وكان الزوج لا

يهمه أن يعدل بين أزواجه وحريمه، فكانت حقوق الزوجات مهضومة، ونفوسهن ثائرة، وقلوبهن متنافرة.

وكان من تقاليدهم البغيضة وأد البنات ودفنهن أحياء، وكان الرجل إذا بشر بالأنثى توارى عن أهله حياء وخجلا.

وكان منهم من يعتقد بفناء الإنسان إذا رحل من هذا العالم، ومنهم من كان يعتقد بالنشور فى حياة بعد هذه الحياة. فكان هؤلاء إذا مات أحد أقربائهم يذبحون على قبره ناقة أو يربطونها ثم يدعونها تموت جوعا معتقدين أن الروح عندما تنفصل من الجسد تتشكل بهيئة طير يسمونه الهامة أو الصدى، وهى نوع من البوم لا تبرح تطير بجانب قبر الميت نائحة، تأتيه بأخبار أولاده. وإذا كان الفقيد قتيلا تصيح قائلة:

– اسقونى... اسقونى. وتظل تردد هذه الكلمة حتى ينتقم له أهله من قاتله بسفك دمه».

وإذا اكتفينا بهذا القدر من «جون لابوم» الفرنسى عن حالة العرب قبل الدعوة المحمدية، ثم انتقلنا إلى:

بوسورث سميث» (١٨٤٠– ١٨٧٦م) الإنجليزى:

فإننا نجده قد وصفهم بأنهم ماديون، لا يعتقدون فى الحياة بعد الموت، ولا يشعرون بمسئولية أعمالهم. كانوا يؤمنون بالأرواح الشريرة وينسبون إليها كل ما كان ينتابهم من علل وأسقام. وكان الجهل منتشرا بينهم، وكانت الرذيلة متفشية إلى أبعد حد، حتى انعدمت كل رابطة فى البلاد.

أما أشعارهم فكانت مليئة بالفحش والاستهتار.. وشاعت الفاحشة بينهم، ولم يكن هناك رادع من نظام أو ضمير.

وبلغ مركز المرأة الدرك الأسفل كما يقول «بوسورث سميث» وغدت كالمتاع تباع وتشترى وتورث ولا ترث.

أما السير «وليم ميور» (١٨١٩- ١٩٠٥م) فقد تناولهم من جانب آخر فقال:

لقد كانت عبادة الأصنام متأصلة فى نفوسهم وتجرى فى عروقهم.. بعد أن ملأت الخرافات والأوهام والخزعبلات فراغ عقولهم.. فكان لذلك أثر بالغ فى كل أعمالهم وتصرفاتهم، أما عن حبهم للعنف والحرب والقتال فوصفه قائلا:

«كانت قبائلهم متنافرة، كل منها مستقل عن الآخر. لا تعرف الهدوء والاستقرار. وكثيرا ما كانت تدخل فى حرب طاحنة مع القبائل المجاورة بلارحمة ولا هوادة حتى القبائل التى كانت تربطها روابط القرابة والمنفعة كانت تتقاتل لأتفه الأسباب».

ولهذا يحق للمسيو «**سباستيان شارلتى**» (**١٨٦٧- ١٩٤٥م**) أن يقول كلمته المأثورة:

«لقد مات الشرق بموت **دارا** (**٣٣٥- ٣٣٠ ق.م**) وعادت إليه الحياة على يد محمد».

و دارا هو ملك الفرس الذى حاربه الإسكندر (٣٥٦- ٣٢٣ ق.م) فى القرن الرابع قبل الميلاد وقهره واحتل بلاده التى كانت أقوى أمم الشرق وقتئذ.

وظل الشرق كله بما فيه بلاد العرب غارقا فى مظاهر الضعف والخور حتى جاء نبى الإسلام فبعث دولة الشرق من جديد ونمت وترعرعت

وشـــبت وازدهرت بفضل دينه وتعاليمه فإذا بسلطانه يعود كما كان وإذا بمجده يبعث من جديد، وإذا بالإمبراطورية العربية الإســـلامية تمتد إلى الهند شرقا وإلى بلاد أسبانيا غربا.

* * *

نبى الإسلام فى مرآة الفكر الإنجليزى

توماس كارليل

تناول توماس كارليل فى كتابه الأبطال، حياة محمد بالبحث والتحليل قائلا: من العار أن يصغى أى إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين إن دين الإسلام كذب وأن محمدا لم يكن على حق، لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة، فالرسالة التى دعا إليها هذا النبى ظلت سراجا منيرا أربعة عشر قرنا من الزمان، لملايين كثيرة من الناس. فهل من المعقول أن تكون هذه الرسالة التى عاشت عليها هذه الملايين وماتت أكذوبة كاذب أو خديعة مخادع؟!.

ولو أن الكذب والتضليل يروجان عند الخلق هذا الرواج الكبير، لأضحت الحياة سخفا وعبثا، وكان الأجدر بها ألا توجد. هل رأيتم رجلا كاذبا يستطيع أن يخلق دينا ويتعهده بالنشر بهذه الصورة؟ إن الرجل الكاذب لا يستطيع أن يبنى بيتا من الطوب لجهله بخصائص مواد البناء، وإذا بناه فما ذاك الذى يبنيه إلا كومة من أخلاط هذه المواد، فما بالك بالذى يبنى بيتا، تبقى دعائمه هذه القرون العديدة وتسكنه هذه الملايين الكثيرة من الناس؟!

وعلى ذلك فمن الخطأ أن نعد محمدا رجلا كاذبا متصنعا، متذرعا بالحيل والوسائل لغاية أو مطمع.. وما الرسالة التى أداها إلا الصدق والحق.

ومـا كلمته إلا صـوت حق صادق صادر من العالم المجهول.. وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله.. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وهب جدلا أن لمحمد هفوات. فإنه ليس فى مقدور هذه الهفوات أن تستر تلك الحقيقة الكبرى وهى أنه رجل صادق ونبى مرسل.

ثم استرسـل توماس كارليـل يقول: أحب محمدا لـبراءة طبعه من الرياء والتصنع. ولقد كان ابن الصحراء مستقل الرأى، لا يعتمد إلا على نفسه، ولا يدعى ما ليس فيه، ولم يكن متكبرا ولا ذليلا، فهو قائم فى ثوبه المرقع. كما أوجده الله. يخاطب بقوله الحر المبين أكاسـرة العجم وقياصـرة الروم. يرشـدهم إلى مـا يجب عليهم لهذه الحيـاة، وللحياة الآخرة.

وما كان محمد بعابث قط. ولا شاب قوله شائبة لعب ولهم؛ فكانت المسـائل عنده مسألة فناء وبقاء. أما التلاعب بالأقوال والعبث بالحقائق فما كان من عادته قط.

وكان «محمد» إذا سئل أن يأتى بمعجزة قال حسبكم بالكون معجزة.. انظروا إلى هذه الأرض، أليست من عجائب صنع الله؟! أليست آية من آيـات عظمته.. انظروا إلى هذه الأرض هى التى خلقها الله لتمشـوا فى مناكبها ولتأكلوا من رزقها.. انظروا إلى هذا السـحاب المسـير فى الآفاق كيف يتحول إلى ماء يروى الأرض ويخرج به النبات والزرع.. ألستم أنتم معجـزات؟.. لقد كنتم صغارا، وقبل ذلك لم تكونوا أبدا، ثم لكم جمال وقـوة وعقل، ثم يأتيكم المشـيب ثم تموتون. لقد كان الكون نفسـه فى نظـره معجزة!.. لقد كان يرى كل مـا كان يراه كبار المفكرين، وهو أن

هذا الكون المادى إنما هو فى الحقيقة لا شىء.. وهو ظل علقه الله فى الفضاء لا غير، وإن دل على شىء فهو يدل على أنه آية من آيات الله.

ويزعم المتعصبون أن محمدا لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والجاه والسلطان، كلا وايم الله، لقد انطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس- المملوء رحمة وبرا وحنانا وخيرا ونورا وحكمة- أفكار غير الطمع الدنيوى وأهداف سامية غير طلب الجاه والسلطان.

ويزعم الكاذبون أنه الطمع وحب الدنيا هو الذى أقام محمدا وآثاره، حمق وسخافة وهوس إن رأينا رأيهم، أى فائدة لرجل على هذه الصورة فى جميع بلاد العرب، وفى تاج قيصر وصولجان كسرى وفى جميع ما بالأرض من تيجان!.

لم يكن كغيره يرضى بالأوضاع الكاذبة، ويسير تبعا للاعتبارات الباطلة، ولم يقبل أن يتشح بالأكاذيب والأباطيل، لقد كان منفردا بنفسه العظيمة وبحقائق الكون والكائنات، لقد كان سر الوجود يسطع أمام عينيه بأهواله ومحاسنه ومخاوفه.لهذا جاء صوت هذا الرجل منبعثا من قلب الطبيعة ذاتها.. لهذا وجدنا الآذان إليه مصغية والقلوب لما يقول واعية. لقد كان يجول فى خاطره منذ رحلاته وأسفاره آلاف من الأفكار.

ماذا أنا؟.. ما هى الحياة؟.. ما هو الموت؟.. ماذا أفعل؟ لقد أحس هذا الرجل ابن الصحراء أن هذه هى كبرى المسائل وأهمها. وكل شىء فى هذا الوجود عديم الأهمية بجانبها.

ثم استطرد توماس كارليل يصور شخصية هذا النبى الكريم إلى أن قال: «لقد كان زاهدا متقشفا فى مسكنه ومأكله ومشربه وملبسه وسائر

أموره وأحواله، فكان طعامه عادة الخبز والماء، وكثيرا ما تتابعت الشهور ولم توقد بداره نار. فهل بعد ذلك مكرمة ومفخرة؟ فحبذا محمد من رجل متقشف، خشن الملبس والمأكل، مجتهد فى الله، دائب فى نشر دين الله، غير طامح إلى ما يطمح إليه غيره من رتبة أو دولة أو سلطان.

ولو كان غير ذلك لما استطاع أن يلاقى من العرب الغلاظ احتراما وإجلالا وإكبارا؛ ولما استطاع أن يقودهم ويعاشرهم معظم وقته، ثلاثا وعشرين حجة، وهم ملتفون حوله، يقاتلون بين يديه ويجاهدون حوله؟

لقد كان فى قلوب هؤلاء العرب جفاء وغلظة، وكان من الصعب قيادتهم وتوجيههم، لهذا كان من يقدر على ترويضهم وتذليلهم بطلا وأيم الله.

ولولا ما وجدوا فيه من آيات النبل والفضل لما خضعوا لإرادته ولما انقادوا لمشيئته.

وفى ظنى أنه لو وضع قيصر بتاجه وصولجانه وسط هؤلاء القوم بدل هذا النبى لما استطاع قيصر أن يجبرهم على طاعته كما استطاع هذا النبى فى ثوبه المرقع».

هكذا تكون العظمة؟!

وهكذا تكون البطولة؟!

وهكذا تكون العبقرية؟!

وتناول هذا المفكر الإنجليزى رسالة هذا النبى وما لاقى فيها من صعاب فكتب يقول:

كانت زوجته «خديجة» فى طليعة الذين آمنوا برسالته، لقد رأى فى إيمانها بكلمته المخلصة جميلا يفوق كل ما أسدت إليه من قبل؛ فليس أجمل على النفس من أن يجد الإنسان له شريكا فى أفكاره ومعتقداته.

وهذا هو الذى دعا **نوفاليس (١٢٧٢هـ- ١٨٠١م)** أن يقول: ما رأيت شيئا قط يقوى العزيمة واليقين أقوى من انضمام إنسان آخر إلىّ فى الرأى.

لهذا ظل محمد يذكر خديجة حتى لقى ربه، لقد سألته عائشة زوجته الصغيرة البارعة الجمال المتقدة الذكاء ذات يوم قائلة:

ألست الآن أفضل من خديجة؟.. لقد كانت أرملة مسنة ذهب جمالها وولى.. أراك تحبنى أكثر مما كنت تحبها.

فأجابها النبى:

كلا والله.. لست أفضل منها.. وكيف يكون ذلك وهى التى آمنت بى والكل كافر ومنكر؟!

واستمر النبى يذكر رسالته لهذا ولذاك، فما كان يلقى غير الجمود والسخرية؛ حتى إنه لم يؤمن به فى خلال ثلاثة أعوام إلا ثلاثة عشر رجلا، وذلك منتهى البطء وبئس التشجيع، وبعد هذه السنين الثلاث أدب مأدبة لأربعين من أهله ثم قام بينهم خطيبا فذكر دعوته وأنه يريد أن يذيعها فى سائر أنحاء الكون، وأنها المسألة الكبرى.. فأيهم يمد إليه يده ويأخذ بنصره؟، وبينما القوم صامتون فى حيرة ودهشة وثب «على» وكان غلاما فى السادسة عشرة وكان قد غاظه سكوت الجماعة، فصاح فى قوة أنه ذاك النصير والظهير، ولايحتمل أن القوم كانوا منابذين

محمـــدا ومعاديـــه وكلهم قرابته، وفيهم أبوطالب عـــم محمد وأبو على. ولكن رؤية رجل كهل يعينه غلام فى السادســـة عشـــرة يقومان فى وجه العالم بأجمعـــه، كانت مما يدعو إلى العجـــب فانفض القوم ضاحكين، ولكـــن الأمـــر لم يكن بالمضحك، بل كان غاية فـــى الجد والخطر! ، أما «على» فلا يسعنا إلا أن نحبه ونتعشقه فإنه فتى شريف النفس، يفيض قلبه رحمة وبرا، وكان أشـــجع من أسد، ولكن كانت شجاعته ممزوجة برقة ووداعة وحنان.

واســـتمر النبى يؤدى الرســـالة إلى كل من أصغى إليه وينشـــر مذهبه بين الحجيج مدة إقامتهم بمكة ويســـتميل الأتباع هنا وهناك، وهو يلقى أثنـــاء كل ذلـــك منابذة ومنـــاوأة ومناصبة بالعداوة ومجاهرة وشـــرا باديا وكامنـــا، وكانت قرابته تحميه وتدافع عنه، ولكنه عزم هو وأتباعه على الهجرة إلى الحبشـــة فوقع خبر ذلك العزم من قريش أسوأ موقع وضاعف حنقهم عليه فنصبوا الأشراك وبثوا الحبائل وأقسموا بالآلهة ليقتلن محمدا بأيديهم، وكانت خديجة قد توفيت وتوفى أبو طالب، وتعلمون أصلحكم الله أن محمدا ليس بحاجة إلى أن نرثى له ولحاله النكراء ومقامه الضنك وموقفه الحرج، ولكن اعرفوا معى أن حاله وقتئذ كان أشد حالات الضنك والبلاء، لقد كان يختبئ فى الكهوف ويفر متنكرا من مكان إلى مكان، لا مأوى له ولا ناصر ولا معين، تتهدده المخاوف وتتوعده المهالك.

وفى العام الثالث عشـــر من رسالته وجد أعداءه متألبين عليه جميعا؛ وكانـــوا أربعين رجلا كل من قبيلة ائتمروا به ليقتلوه، وعندئذ وجد المقام بمكة مســـتحيلا فهاجر إلى يثرب حيث التف به الأنصار، والبلدة تسمى

الآن المدينة. أى مدينة النبى وهى من مكة على بعد مائتى ميل، تقوم وسط صخور وقفار. ومن هذه الهجرة يبتدئ التاريخ فى المشرق والسنة الأولى من الهجرة توافق ٦٢٢ ميلادية وهى السنة الخامسة والخمسون من عمر هذا النبى. وبهذا بدأ النبى فى مرحلة جديدة من مراحل رسالته.

وتناول «توماس كارليل» الدين الإسلامى ببعض البحث والتحليل فكتب يقول: لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور وأحيا به أمة هامدة. وما كانت هذه الأمة إلا فئة جوالة فى الصحراء خاملة فقيرة تجوب الفلوات ومنذ بدء العالم لا يسمع لها صوت ولا تحس منها حركة، فأرسل الله لهم نبيا بكلمة من عنده ورسالة من قبله، فإذا بالخمول قد استحال شهرة، والغموض نباهة، والضعف قوة، وإذا بالضوء الخافت قد أضحى نورا وهاجا يملأ الأنحاء ويعم الأرجاء.

وما هو إلا قرن بعد هذا الحادث حتى امتدت دولة العرب إلى الهند وإلى بلاد الأندلس. وظلت هذه الدولة تشرق حقبا عديدة ودهورا مديدة بنور الحق والمروءة والعدل والشهامة والنبل.

وفى موضع آخر كتب يقول: «وفى الإسلام صفة أراها أشرف الصفات وأعظمها وهى المساواة بين الناس. وهذا يدل على صدق النظر وصواب الرأى».

والإسلام لم يقنع بجعل الصدقة سنة محبوبة، بل جعلها فرضا على كل مسلم. وجعلها قاعدة من قواعد الإسلام. وقدرها بنسبة من الثروة، تعطى للفقراء والمساكين والمنكوبين.

جميل والله كل هذا!!

جميل والله أن ينبعث صوت الرحمة والإخاء والإنسانية من فؤاد هذا النبى الكريم ابن القفار والصحراء.

قد نتساءل لماذا اختار «توماس كارليل» هاتين الميزتين من بين مزايا كثيرة؟!

لقد رأى فى هاتين الميزتين مظهرين مختلفين من مظاهر إصلاح المجتمعات وتقويمها.

لقد رأى فى الصدقات مظهرا من مظاهر التكافل والتضامن الاجتماعى بين طبقات الشعب الواحد.

وفى معرض الدفاع عن الدين الإسلامى كتب يقول:

وأى دليل يشهد ببراءة الإسلام من الميل إلى الملذات من شهر رمضان الذى تلجم فيه الشهوات وتزجر فيه النفوس.

إن أمجد الخصال وأشرف المكارم هو أن يكون للمرء من نفسه على نفسه سلطان، وألا يجعل من لذاته أغلالا تقيده، بل يجعل منها حليا وزخارف متى شاء خلعها ومتى شاء نزعها.

كذلك أمر رمضان، حيث تلجم فيه الشهوات وتخضع. ثم استطرد فى دفاعه عن الإسلام يقول: لقد مضى على هذا الدين مئتان وألف عام وهو الدين القويم والصراط المستقيم لأكثر من سدس سكان العالم[1]، ومازال فوق ذلك دينا يؤمن به أهله من حبات أفئدتهم، ولا أحسب أن أمة اعتصمت بدينها اعتصام المسلمين بإسلامهم، إذ

(١) يكون المسلمون اليوم نحوا من ربع سكان العالم.

يوقنـــون به كل اليقين، ويواجهون به الدهـــر أبدا، وينادى حارس الليل فى شوارع القاهرة أحد المارة: من السائر؟ فيجيبه السائر، «لا إلـــه إلا الله»، إن كلمته التوحيد والتكبير لـــترن آناء الليل وأطراف النهار فى صدور تلك الملايين من البشر، وإن الفقهاء ذوى الغيرة فى الله والتفانـــى فى حبه يذهبون إلى الشـــعوب الوثنية بالهند والصين والمالاى فيهدمون أضاليلهم ويشـــيدون مكانها قواعد الإسلام، ونعم ما يفعلون.

أمـــا عن القـــرآن فكتب توماس كارليل يقـــول: «لقد نظر العرب إليه نظـــرة معجزة لما بـــين آياته وأذواقهم من ملائمـــة، ولعدم وجود ترجمة تذهب بحسنه وإبداعه.

لقد أعطـــاه العرب من التبجيل أكثر مما أعطاه أهل الأديان الأخرى لأديانهم وما برح فى كل زمان ومكان قاعدة التشـــريع والعمل، والقانون المتبع فى شؤون الحياة ومسائلها، والوحى المنزل من السماء هدى للناس وسراجا منيرا يضىء لهم سبل العيش ويهديهم صراطا مستقيما، ومصدر أحكام القضاة، والدرس الواجب على كل مسلم حفظه والاستنارة به فى غياهب الحياة، وفى بلاد المسلمين مساجد يتلى فيها القرآن جميعه كل يـــوم مرة يتقاسمه ثلاثـــون قارئا على التوالى، وكذلك ما برح هذا الكتاب يرن صوته فى آذان الألوف من خلق الله وفى قلوبهم فى كل آن ولحظة».

* * *

برنارد شو
(١٨٥٦هـ - ١٩١٠م)
يكرم نبى الإسلام

«إننـى أعتقـد أن رجلا كمحمد لو تسـلم زمام الحكـم فى العالم بأجمعه، لتم النجاح فى حكمه ولقاده إلى الخير، وحل مشكلاته على وجه يكفل للعالم السلام والسعادة المنشودة».

برنارد شو

لا نعد برنارد شـو كاتبا وفيلسـوفا إنجليزيا عظيما فحسب، بل هو فى طليعة المفكرين والفلاسـفة فى العالم أجمـع. ومن أخص خصائص هذا الفيلسـوف الكبير أنه جرىء إلى أبعد حد، وصريح إلى أبعد حدود الصراحـة.. فـإذا أبدى رأيا فى يوم من الأيـام، فهو رأى يؤمن به كل الإيمان ويعتقد بصحته وصوابه إلى حد كبير.

وفى أثناء سـياحته فى بومباى بالهند كتب رسالة أوضح فيها رأيه فى صلاحية الدين المحمدى لجميع الأمم، فى كل زمان ومكان، وشاد بفضل هذا الرسول وعظمته وعبقريته قائلا:

«لقد وضعت دائما دين محمد موضع الاعتبار السامى بسبب حيويته العظيمـة، فهو الدين الوحيد الذى يلوح لى أنه حائز أهلية العيش لأطوار الحياة المختلفة، بحيث يستطيع أن يكون جذابا لكل زمان ومكان».

ثم استطرد يقول:

«لا مشاحة فى أن العالم يعلق أهمية كبيرة على نبوءات كبار الرجال.. لقد تنبأت بأن دين محمد سيكون مقبولا لدى أوربا فى الغد القريب، وقد بدأ يكون مقبولا لديها اليوم.. ولقد صور أكليروس القرون الوسطى الإسلام بأحلك الألوان، إما بسبب الجهل، أو بسبب التعصب الذميم.. ولقد كانوا فى الواقع يمرنون على كراهية محمد وكراهية دينه، وكانوا يعتبرونه خصما للمسيح.. ولقد درسته باعتباره رجلا عظيما، فرأيته بعيدا عن مخاصمة المسيح بل يجب أن يدعى منقذ الإنسانية، وإنى لأعتقد بأنه لو تولى رجل مثله حكم العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة اللذين هو فى أشد الحاجة إليهما.. ولقد أدرك فى القرن التاسع عشر مفكرون مخلصون أمثال **كارلايل وجوت (١٧٤٩- ١٨٣٢م)، وجيبون (١٧٣٧- ١٧٩٤م)** القيمة الذاتية لدين محمد.. وهكذا وجد تحول حسن فى موقف أوربا من الإسلام.. ولكن أوربا فى القرن الراهن تقدمت فى هذا السبيل كثيرا، فبدأت تعشق عقيدة محمد.. وفى القرون القادمة قد تذهب أوربا إلى أبعد من ذلك، فتعترف بفائدة هذه العقيدة فى حل مشاكلها.. بهذه الروح يجب أن تفهموا نبوءتى.

وفى الوقت الحاضر دخل كثير من أبناء قومى من أهل أوربا فى دين محمد، حتى ليمكن أن يقال إن تحول أوربا إلى الإسلام قد بدأ».

هكذا وصف أكبر كاتب إنجليزى الإسلام ونبيه الكريم، وهكذا شهد له أكبر فلاسفة أوربا.

لقد سجل برناردشو كلماته هذه بعد بحث وتفكير وروية، بعد أن عرف أن دين هذا النبى وضع لكل مشكلة اجتماعية واقتصادية الحل المناسب لها الذى يصلح لكل زمان ومكان.

لقد سجل هذا الكاتب الكبير كلماته بعد دراسة عميقة لقواعد هذا الدين وما فيه من آيات بينات.. ولولا أنه درس هذا الموضوع دراسة عميقة وافية لما قال:

لقد بدأت أوربا الآن تتعشق الإسلام.. ولن يمضى القرن الحادى والعشرين حتى تكون أوروبا قد بدأت تستعين به فى حل مشاكلها.

لقد نظر برناردشو إلى العرب قبل الدعوة المحمدية فوجدهم فى فساد وفوضى ووحشية وهمجية وحرب وقتال دائم، يقتلون البنات وينظرون إلى النساء نظرة احتقار وسخرية.. ورآهم أشد الأمم تباهيا بالأنساب وتساميا بالآباء، فكانت كل قبيلة تزعم أنها الفريدة فى مفاخرها.. وقد غلوا فى هذا الاتجاه حتى جعلوا لإبلهم وخيولهم أنسابا يرفعونها بها على سائر الخيول والإبل.. فما بالك بمن بعد عنهم من القبائل والشعوب واختلف معهم فى اللغة والتقاليد، ثم نظر إليهم بعد دعوة هذا النبى الكريم، فوجدهم خلقا جديدا، لا فرق بين عربى وعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح، ووجدهم فى تقدم ورقى وحضارة تمتد أطرافها فى الشرق والغرب.. ورأى كيف دانت لهم الممالك والأمصار فى سهولة ويسر.. وكيف رضيت به الشعوب على اختلاف أجناسها.. وكيف ازدهرت العلوم وانتعشت الفنون على أيديهم، ورأى كيف أضحت المرأة إنسانا محترما له ما للرجال من احترام وحقوق.

لقد درس برنارد شو أمة محمد صلوات الله عليه فوجدها قائمة على الأصول الأدبية والمبادئ الأخلاقية، لا على الأمور المعيشية والمطالب المادية كما هو الحال فى المدنية الأوربية. فرأى بذلك أول أمة فى تاريخ العالم قامت على مبادئ سامية وقواعد خلقية وأسس روحانية.

لقد رآها أمة ديمقراطية بأوسع معانى الكلمة.. رآها ديمقراطية لأنها لم تعترف بالفروق الطائفية والامتيازات الأرستقراطية، رآها أمة لا تفرق بين ذكر وأنثى وبين سيد ومولى إلا بالخير والعمل الصالح المنتج.. رآها أمة تؤمن بتكافؤ الفرص، وتفتح الباب أمام العاملين من كل بيئة وجنس ولون، لكى ينال قصب السبق كل من سمت همته وعلت كفايته.

لقد درس برنارد شو أمة هذا النبى فوجدها دستورية لأن الحكومة قيدت فيها بكتاب إلهى، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وهذه أعظم صفات الأمم الدستورية.. وقد حقق هذا الكتاب كل أغراض الحكومة الدستورية فجعل الحكم شوريا، وحذف الامتيازات الفردية والطائفية والجنسية ومحا الفوارق فى الحقوق والواجبات بين مختلف الطبقات وأخضع الجميع لمبادئ واحدة لا فرق بين حاكم ومحكوم وأبيض وأسود، وذكر وأنثى.

هذه هى الأمة التى قامت على الدعوة المحمدية.

ألا يحق لبرنارد شو أن يصف هذا النبى الكريم بأنه منقذ الإنسانية؟

ألا يحق له بعد هذا كله أن يقول:

«إننى أعتقد أن رجلا كمحمد لو تسلم زمام الحكم فى العالم بأجمعه لتم النجاح فى حكمه ولقاده إلى الخير وحل مشكلاته على وجه يكفل السلام والطمأنينة والسعادة المنشودة».

درس برناردشو الحياة الإسلامية، وأدرك أنها قائمة على التكافل والتضامن والتعاون بين الأفراد والشعوب، ورأى فى ذلك سر النجاح.

فالمرأة والرجل متكافلان فى الحياة الدنيا من نفس واحدة بعضهما من بعض يتمم كل واحد منهما الآخر وأساس الصلة بينهما المودة والرحمة، والرجال أنصاف تتلمس أنصافها الأخرى فى مخادع النساء، ومن تزوج فقد عصم نصف دينه، وفى كل هذه المعانى يقول القرآن الكريم:

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ﴾ (الروم: ٢١)

وفى موضوع آخر:

﴿ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا ﴾ (النساء: ١٢٤)

﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ (النحل: ٩٧)

والغنى والفقير والعامل والممول متكافلون فى هذه الحياة الدنيا يشد بعضهم أزر بعض ويتعاونون على البر والتقوى فللفقير حق معلوم فى مال الغنى.. وفى ذلك تدعيم للمجتمع أولا والأسرة ثانيا والدولة ثالثا، وأكبر الكبائر فى الإسلام أن يبيت الرجل شبعانا وجاره جائع، وأجر العامل حق مكفول.. ومن ظلمه إياه أو أخره عنه فقد أثم إثما عظيما، وتعرض لعقاب الدنيا وخزى الآخرة.. وعلى الفقير والعامل أن يصدقا وينصحا ويؤديا عملهما كاملا، فإن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه.

والحاكم والمحكوم متكافلان، على الحاكم العدل والمساواة والرعاية، وعلى المحكوم الطاعة والنصيحة والمعاونة..

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ﴾(النساء: ٥٨)

﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ (النساء: ٥٩)

هكذا كان التكافل وحسن التعامل قوام الحياة الاجتماعية التى جاء بها الإسلام الحنيف.. فماذا فعلت المطامع والأهواء والنظم الأرضية المادية التى طلعت بها أوربا على الناس يوم أن انتهت إليها قيادة البشرية؟

بدلت نعمة الله كفرا وأحلت التنافر والتخاصم محل هذا التكافل والتعاون وفشلت فى تحقيق العدالة والإخاء والسلام على وجه الأرض.

ألا يحق بعد هذا كله أن يسجل برناردشو كلمته الخالدة ويقول: «وإنى لأعتقد بأنه لو تولى رجل مثله حكم العالم الحديث لنجح فى حل مشكلاته بطريقة تجلب إلى العالم السلام والسعادة والطمأنينة التى هو فى أشد الحاجة إليها».

وهذه الصيحة التى أطلقها برناردشو عن الإسلام ونبيه، تتفق إلى حد كبير مع خطبة المستر **كاين تلر** التى ألقاها فى حفل كبير جامع حيث قال:

«يمتد الدين الإسلامى الآن من مراكش إلى أنقرة، ومن زنجبار إلى الصين ويخطو فى داخل إفريقيا خطوات كبيرة وتعتنقه أمم كثيرة، وقد خطى بنفسه، وثبتت قدمه فى الكونغو التى صارت بلادا إسلامية بأجمعها وخاصة البلاد السودانية وهى أشدهن بأسا.. أما فى الهند فإن التمدن الغربى الذى كان يهدم أركان الوثنية فإنه يمهد الطريق للدين الإسلامى لا غير، فأهل الهند البالغ قدرهم ٢٥٥ مليون نسمة، منهم ٥٠

مليونا الآن مسلمون[1] .. وسكان إفريقيا بأجمعهم أكثر من النصف منهم مسلمون. وهذا يدل على أن الإسلام فى تزايد وانتشار.

ثم استطرد يقول: لقد أفاد الإسلام التمدن أكثر من النصرانية، ونشر راية المساواة والأخوة.. وهذه الأدلة نذكرها نقلا عن تقارير الموظفين الإنجليز وعما كتبه أغلب السياح عن النتائج الحسنة التى نتجت من الدين الإسلامى وظهرت آياتها منه، فإنه عندما تدين به أمة من الأمم السودانية تختفى من بينها فى الحال عبادة الأوثان واتباع الشيطان والإشراك بالعزيز الرحمن، وتحرم أكل لحم الإنسان وقتل الرجال ووأد الأطفال، وتضرب عن الكهانة، ويأخذ أهلها بأسباب الإصلاح وحب الطهارة واجتناب الخبائث والرجس والسعى نحو إحراز المعالى وشرف النفس، ويصبح عندهم قرى الضيف من الواجبات الدينية، وشرب الخمر من الأمور البغيضة، ولعب الميسر والأزلام محرمة، والرقص القبيح ومخالطة النساء اختلاطا دون تمييز بغيضا، ويحسبون عفة المرأة من الفضائل ويتمسكون بحسن الشمائل.

أما الغلو فى الحرية والتهتك وراء الشهوات البهيمية فلا تجيزه الشريعة الإسلامية.. والدين الإسلامى هو الدين الذى يعمم النظام بين الورى ويقمع النفس عن الهوى، ويحرم إراقة الدماء والقسوة فى معاملة الحيوان والأرقاء، ويوصى بالإنسانية ويحض على الخيرات والأخوة. يقول بالاعتدال فى تعدد الزوجات وكبح جماح الشهوات».

(١) يبلغ تعداد المسلمين اليوم- فى الهند- نحو ١٨٠ مليونا- وهم ١٥٪ من سكان الهند وذلك غير سكان باكستان وبنجلاديش ولقد كانت موحدة جميعها فى عصر برناردشو

نبى الإسلام
كما يصوره بوسورث سميث

تناول **بوسورث سميث (١٧٨٤– ١٨٨٤م)** فى كتاب له بعنوان «محمد والدين المحمدى».. حياة محمد بالبحث والتحليل فقال:

«وكما كان محمد رئيسا للدولة كان رئيسا للدين أيضا، أى إنه كان قيصرا وبابا فى شخص واحد.. ولكنه كان بابا من غير مزاعم البابا، وقيصرا دون أن يكون له جيوش قيصر.

كان محمد فى وقت واحد مؤسسا لأمة، ومقيما لإمبراطورية، وبانيا لدين.. وهو إن كان أميا فقد أتى بكتاب يحوى أدبا وقانونا وأخلاقا عامة، وكتبا مقدسة فى كتاب واحد، وهو كتاب يقدسه إلى يومنا هذا سدس مجموع النوع البشرى[1]، لأنه معجزة فى دقة الأسلوب وسمو الحكمة وجلال الحق.

ثم استطرد بوسورث سميث يقول:

«إن أعجب العجائب فى حياة محمد أنه لم يدع قط القدرة على إتيان المعجزات، فأيما شىء قال إنه يستطيع أن يفعله رآه أتباعه وهو يفعله.. ولم ينسب أحد منهم إليه معجزة من المعجزات، بل إن محمدا نفسه حرص دائما على أن ينكر قدرته على إتيانها.. أى دليل له مثل هذه القوة على الإخلاص يمكن أن يسوقه إنسان! لقد ظل محمد إلى آخر حياته وليس له لقب يعتز به إلا إنه نبى مرسل من عند الله.. دون أن يكون

(١) يبلغ تعداد المسلمين اليوم قرابة ربع سكان العالم.

له جيش قائم ولا دخل ثابت.. وإذا كان لأى إنسان أن يدعى الحق فى تلقى الوحى من الله فإنه محمد، وإنه لحدث فريد فى التاريخ أن يؤسس محمد شعبا وإمبراطورية ودينا».

وفى موضع آخر كتب يقول:

«لقد كان محمد موفقا كل التوفيق، ولم يحدثنا التاريخ عن مثله.. لقد جمع بين زعامات ثلاث هى زعامة الشعب، وزعامة الدين، وزعامة الحكم والسلطان.. ومع أنه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب، فقد جاء بكتاب جمع بين البلاغة والتشريع والعباده، يقدسه أكثر من سدس سكان العالم».

أليس فى هذا كله معجزة؟! إنها معجزة المعجزات!

* * *

نبى الإسلام
كما يراه السر وليم ميور

أما السير وليم ميور william muir فتناول حياة هذا النبى بالبحث والتحليل من جوانب مختلفة، فعن فترة شبابه كتب يقول: «بجانب صفاء ذهنه ورقة طبعه عاش جانبا كبيرا من شبابه فى أعماق نفسه.. لقد شغلت تأملاته وهواجسه أوقات الفراغ التى كان يقضيها الآخرون فى خلاعة وألعاب شرسة.. أما أخلاقه الطاهرة وتصرفاته المشرفة فمنحته تقدير مواطنيه فلقبوه بالأمين».

وقد تناول جانبا آخر من حياة هذا الرسول فقال: «ومن صفاته الجديرة بالتنويه الرقة والاحترام اللذان كان يعامل بهما أتباعه حتى أقلهم شأنا، فالتواضع والرأفة والأناة وإنكار الذات والسماحة والسخاء تغلغلت فى نفسه فأحبه كل من حوله.

وكان يكره أن يقول لا، فإذا لم يتمكن من أن يجيب الطالب لسؤاله فضل السكوت على الجواب.. وقد قالت عنه عائشة: إنه كان أشد حياء من العذراء فى خدرها، وكان إذا أساءه شىء تبيناه فى أسارير وجهه أكثر من كلامه.. ولم يمس أحدا بالضرر إلا فى سبيل الله.. ويؤثر عنه أنه كان لا يمتنع عن إجابة دعوة إلى بيت مهما كان رب البيت، وإذا جلس إلى صاحبه لم يرفع نحوه ركبتيه تشامخا منه وكبرا.. وكانت له تلك الخلة النادرة التى يجعل بها كل فرد من صحابته يظن أنه المفضل المختار».

أما علاقة النبى بأصحابه فتناولها السير وليم ميور قائلا: «كان

محمـد صديقا وفيا، أحب أبا بكر محبة الشـقيق الودود، وعليا محبة الأب الـرءوف.. ومما يذكر أن زيـدا الذى كان عبد خديجة كان متعلقا بالنبـى تعلقا شـديدا لعطفه عليه، حتى إنه فضـل البقاء بمكة على أن يعود لبلده مع أبيه وتعلق بأهداب النبى قائلا: لست تاركك، فقد كنت لى أبـا بارا عطوفا. وقد بقيت صداقتـه بالنبى إلى ما بعد موت زيد، إذ عامل أسـامة إبنه معاملة فيها إكرام لأبيه، كذلك كانت علاقته بعثمان وعمر مشبعة بروح المودة والولاء. وكان محمد عليه الصلاة والسلام عادلا مقتصـدا، فلم يكن يعزه الرفـق بأعدائه إذا ما دانوا لـه بالطاعة، وقد كان دفاع مكـة العتيد الطويل المدى ضد دعوته يحمل على البطش بهم بعـد فتحهـا، ولكنه أصدر عفـوا عاما ملقيا ذكريـات الماضى بما فيها من سـخرية وإهانة واضطهاد فى زوايا النسيان. وعامل أعداءه بالإكرام والسخاء، ولم تكن السماحة التى أبداها لأهل مكة الخارجين عليه بأقل مـن ذلك ظهورا، وهم الذين ناصبوه العداء سـنين طـوالا، وامتنعوا عن الدخول فى طاعته».

وكتب المسـتر **لين بول** (١٨٠١- ١٨٧٦م) رسـالة بعنوان محمد ﷺ دافع فيها عن هذا النبى الكريم دفاعا صادقا محمودا، فجاء دفاعه صورة ناطقة بعظمة هذا الرسـول وعبقريته. وفى رسـالته هذه كتب يقول: إن كثيرا من كتاب التراجم والسـير الأوربيين الذين تناولوا الكلام عن سيرة محمد، لم يتعففوا عن أن يشـوهوا هذه السـيرة، بما أدخلوه عليها من افتراءات وادعاءات كاتهامهم له بالقسـوة وارتكاب الموبقات والانهماك فى الشهوات.

أما إنه كان متصفا بالقسوة فتهمة غير جديرة بالاعتبار. ذلك إننا إذا رجعنا إلى التاريخ وحكمناه فى هذه المسألة لتبين لنا أن القسوة لم تكن قط من أخلاق محمد بدليل معاملته للأسرى بعد موقعة بدر وتسامحه مع أعدائه وصبره على أذاهم وعطفه على الأطفال المرضى وحقنه للدماء وعفوه عن أولئك الذين قضوا فى محاربته ثمانية عشر عاما أظهروا له فيها كل صنوف العداء وأذاقوه فى خلالها كل أنواع الجور والظلم والاضطهاد. لقد لبث المسلمون فى مكة ثلاثة عشر عاما ذاقوا فى خلالها كثيرا من المضايقة والاضطهاد حتى اضطر النبى وأصحابه فى النهاية إلى الهجرة للمدينة التى تقع على مسافة ٢٥٠ ميلا من مكة، ولكن الكفار لم يتركوهم بل تعقبوهم إليها فوقعت بين الفريقين عدة وقائع كان موقف محمد وأصحابه فيها موقف الدفاع لا موقف المغير. وأشهر هذه الوقائع غزوة «بدر» التى وقعت على مسافة ٢٢٠ ميلا من مكة و٣٠ ميلا من المدينة. وغزوة «أحد» التى وقعت على بعد اثنى عشر ميلا من المدينة أيضا. والثالثة وهى التى حاصر فيها الأعداء المدينة ليفتكوا بالرسول وأصحابه.

وظلت رحى الحرب دائرة بين الرسول وأصحابه من جانب وبين كفار قريش من جانب آخر حتى انتصر الرسول ودخل مكة فاتحا ظافرا فى موقعة لم تسفك فيها قطرة واحدة من الدماء، أفلا يعتبر هذا كله دليلا على أن محمدا لم يكن متصفا بالقسوة ولا متعطشا للدماء كما يقولون، بل كان يعمل دائما على حقنها جهد المستطاع؟!

ولقد نال محمد تقدير العالم أجمع وأعدائه بنوع خاص، عندما ضرب

للناس مثلا فى مكارم الأخلاق وأطلق سـراح عشرة آلاف أسير كانوا فى يـوم من الأيام يعملون على قتله والفتك بـه وإيراده هو وأصحابه موارد الهلاك. ولما استتب له الأمر وخضعت شبه جزيرة العرب له من أقصاها إلى أقصاهـا. وجاء نصارى نجـران اليمانيون بقيادة البطريرك لم يحاول قط أن يكرههم على اعتناق الإسلام؛ وأمنهم على أموالهم وأرواحهم وأمر بـأن لا يتعرض لهم أحد فى معتقداتهم ولا طقوسـهم الدينية وأن تبقى كنائسـهم ومعابدهم كما هى يؤدون فيها شعائر دينهم كما كانوا يفعلون من قبل، بل أكثر من ذلك لم يفرض عليهم أى ضريبة أو جزية، فلما أن توفى الرسـول وتولى بعده خلفاؤه الراشدون أبو بكر فعمر فعثمان فعلى، لم يحاول أحدهم قط أن ينقض عهد الرسول مع من أمنهم على أنفسهم، بل أحسنوا معاملتهم أيما إحسان.

كل هذا يكشـف لنا عن ناحية من نواحى الرسول وما اتصف به من الصـبر واحتمال المكاره والعفو عند المقـدرة، ويبرهن لنا على أن دعوته كانت خالصة صادقة بقوله:

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ (البقرة: ٢٥٦).

* * *

نبى الإسلام فى مرآة الفكر الفرنسى
(لامرتين) شاعر فرنسا الكبير
(١٧٩٠-١٨٦٩م)

لامرتين نابغة من شعراء فرنسا بدأ اسمه يلمع فى عام ١٨٢٠م وفجأة قفز إلى مصاف فحول الشعراء، ثم انتخب فى المجمع العلمى الفرنسى. وبعدما تجول فى الشرق عين نائبا فى مجلس النواب فكانت له فيه جولات خطابية موفقة.

ولما أسست الجمهورية الثانية كان عضوا فى الهيئة الحاكمة المؤقتة ووزيرا للخارجية.

أما مؤلفاته و دواوينه فهى عديدة نذكر منها التأملات الجديدة.. موت سقراط.. رحلة الشرق.. الانسجام الشعرى والدينى.. جوسلين.

* * *

درس لامرتين حياة نبينا الكريم دراسة وافية، وأدرك ما فيها من عظمة وخلود، وهذا هو الدافع إلى أن يسجل ويقول:

«أترون محمدا كان أخ خداع وكذب.. كلا.. لم يكن خادعا ولا كاذبا بعد ما عرفنا تاريخه ودرسنا حياته، فالكذب والخداع والتدليس صفات تتولد من نفاق العقيدة وليس للنفاق قوة العقيدة وليس للكذب قوة الصدق».

وتناول حياته بالتحليل قائلا:

«إن حياة محمد وقوة تأمله وتفكيره وجهاده، ووثبته على

خرافات أمته وجاهلية شعبه وخزعبلات قبيلته، وشهامته وجرأته وبأسه وثباته ثلاثة عشر عاما يدعو دعوته فى وسط أعدائه، وتقبله سخرية الساخرين وهزأه بهزء الهازئين وحميته فى نشر رسالته، وتوافره على السعى فى إظهار دعوته، ووثوقه بالنجاح وإيمانه بالفوز ورباطة جأشه فى الهزائم. وتطلعه إلى إعلان كلمة الله وتأسيس العقيدة الإسلامية، ونجاح دينه بعد موته. كل ذلك أدلة على أنه لم يكن يضمر خداعا أو يعيش على باطل. وهذا اليقين الذى ملأ روحه هو الذى وهبه القوة على أن يرد إلى الحياة فكرة عظيمة وحجة قائمة ومبدأ مزدوجا، وهو وحدانية الله وتجرد ذاته عن المادة. الأولى تدل على من هو الله، والثانية تنفى ما ألصقه الوثنيون به. الأولى حطمت آلهة كاذبة، والأخرى فتحت طريقا إلى الفكر والتأمل».

وفى موضع آخر يقول:

«لقد كان محمد فيلسوفا وخطيبا ومشرعا وقائدا وفاتح فكر وناشر عقائد تتفق مع الذهن، ومنشئ عشرين دولة فى الأرض، وفاتح دولة فى السماء من الناحية الروحية. أى رجل قيس بجميع هذه المقاييس التى وضعت لوزن العظمة الإنسانية كان أعظم منه؟»

ولو كان مقياس العظمة هو إصلاح شعب متدهور، فمن ذا يتطاول إلى مكان محمد؟!

لقد سما بأمة متدهورة ورفعها إلى قمة المجد، وجعلها مشعلا للمدنية وموردا للعلم والعرفان.

ولو كان مقياس العظمة فى توحيد البشرية المفككة الأوصال فمن أجدر بهذه العظمة من محمد الذى جمع شمل العرب وجعلهم أمة

عظيمة وإمبراطورية شاسعة؟.

ولـو كان مقياس العظمة هو إقامة حكم السـماء على الأرض فمن ذا الذى ينافس محمدا وقد محا مظاهر الوثنية ليقيم عبادة الخالق وحده؟.

ولو قسـنا العظمة بالنصر الحربى والنفوذ والسـلطان فمن يدانيه فى هـذا المضمـار؟! لقد كان يتيما لا حول له ولا قـوة، فأصبح ملكا عظيما ومؤسسا لإمبراطورية دامت ثلاثة عشر قرنا من الزمان.

ولـو كان مقيـاس العظمة هو الأثر الذى يخلـده فى النفوس على مر الأجيـال فها هو محمد يمجده أربعمائة مليون [1] من الناس فى مختلف البقاع، مع تباين أوطانهم وألوانهم وطبقاتهم.

* * *

(١) تعداد المسلمين اليوم مليار وسبعمائة مليون.

نبى الإسلام
كما يراه المستشرق الفرنسى إميل درمنغم
(١٨٩٢-١٩٧١)

كتب المستشرق الفرنسى إميل درمنغم (١٨٩٢– ١٩٧١م) كتابا عن حياة محمد فى شتى مراحلها نقطف منه تلك الفقرات التى جاءت بعنوان «رسول الله»: حيث قال:

«تاريخ البشرية ماهو إلا سلسلة من الإيحاء والإلهام، إذ يسمع البشر بين وقت وآخر صيحة مدوية، وإذا برجل يسير فى طريق الحق غير متوان، عاملا على أن يوقظ الآخرين من نومهم العميق، هكذا يقوم خلاص البشر على سلسلة من الأفعال الحرة الطليقة.

وهكذا نهض محمد ﷺ يدعو قومه إلى دين الواحد الأحد.. وهكذا نهض لينبه آسيا وإفريقيا. وليجدد بلاد فارس الناعسة وليحث نصرانية الشرق التى أفسدتها التأملات الفاترة.

وشأن الأنبياء فى العالم كشأن قوى الطبيعة الهائلة النافعة، كشأن الشمس والمطر، كشأن عواصف الشتاء التى تهز الأرض وتثيرها لتتزين ببساط أخضر فى بضعة أيام. وأحسن شهادة لهؤلاء الأنبياء ما يورثونه من راحة العقول وطمأنينة القلوب وشد العزائم والصبر على الشدائد، مع شفاء الأخلاق المريضة الواهنة.

جاء نبى الإسلام يدعو العلماء ليفقهوا مايقولون، ويقوم ما يتيه فيه الحكماء من الطرق المعوجة؛ فالناس حين يستمعون لكلامه الموحى إليه

به يعود إليهم سابق اتصالهم بالسر المحيط بهم، مهتدين إلى مبدأ حى لا يجدون مثله فى نصائح الفلاسفة وأقطاب السياسة والاجتماع. ويكفى أن نشير إلى أن نبى الإسلام ظهر فى وقت من أشد أوقات التاريخ ظلاما.. فى وقت كانت فيه الحضارات مضطربة متداعية.

وبين محمد ومن تقدمه من أنبياء بنى إسرائيل شبه قوى فكان وهو بمكة، كأشعياء فى إسرائيل. وكان وهو حاكم بالمدينة كيشوع فى كنعان.

والقرآن هو معجزة محمد الوحيدة. فأسلوبه المعجز وقوة إيحائه التى لا تزال لغزا إلى يومنا هذا، يثيران ساكن من يتلونه، ولو لم يكونوا من الأتقياء العابدين. وكان محمد يتحدى الإنس والجن بأن يأتوا بمثله.

وكان هذا التحدى أقوى دليل على صدق رسالته. وهذا لا يعنى الإشارة إلى قيمة أدبية خاصة فى القرآن، مادام محمد كارها للشعراء محترزا من أن يكون أحدهم، وما دام هناك فرق بين وحى الله ونفث الجن، ولا ريب فى أن كل آية منه، ولو أشارت إلى أدق حادثة فى حياته الخاصة تأتيه بما يهز الروح بأسرها من المعجزة العقلية.

ولا يستطيع أحد أن يشك فى إخلاص محمد. فحياة محمد مهما كانت وجهة النظر فيها. شاهدة على اعتقاده صدق الرسالة التى حمل أمانتها الثقيلة ببطولة. وأن قوة إبداعه وعبقريته الواسعة وذكاءه العظيم وبصره النافذ. وقدرته على ضبط نفسه وعزمه المكين، وحذره وحسن تدبيره وطراز عيشه مما يمنع ذلك النبى؛ ذلك الموحى إليه الموهوب من أن يكون مبتلى بالصرع.

ولم يدر فى خلد محمد ثانية أن يجعل كلامه ملائما لذهنية معاصريه حتى يسهل إقناعهم واجتذابهم إليه. فإذا كان محمد قد استمال الناس إليه فلم يكن ذلك بما هو هين سهل، بل بعرضه عليهم رسالته الساطعة القاطعة الحادة كالسيف، المنفصلة عن نظراته الشخصية.

* * *

نبى الإسلام فى مرآة الفكر الأمريكى
عظمة الرسول كما يراها واشنطن أرفنج [١]

لقد تناول واشنطن أرفنج حياة النبى فى مختلف مظاهرها ودرس عبقريته فى شتى صورها.

وكان طبيعيا أن يتحدث عن مدى تعلق هذا النبى برسالته وإخلاصه لدعوته. وفى هذا الصدد كتب يقول:

«تعتمد حياة هذا النبى على الإخلاص، ولم يكن هناك ما يدفعه إلى خوض هذه المصاعب والعقبات التى صادفته عند إعلان دعوته. لو لم يكن الإيمان الخالص لرب العالمين يملأ فراغ عقله وقلبه.. لقد كان قبل دعوته أمينا محبوبا منتميا إلى أشرف قبائل العرب. وكانت زوجته خديجة على ثراء عريض، فاجتمع لديه قبل دعوته كرم المحتد والنسب ووفرة المال وطيب السمعة، ومع ذلك أعلن دعوته بالرغم عما كان يحيطها من متاعب واضطهادات. وهو لا يرجو من ورائها إلا إعلاء كلمة ربه. ومن مظاهر عظمة الرسول التى أشار إليها واشنطن أرفنج تسامحه مع خصومه ومعارضيه بعد فتح مكة، وفى هذا الصدد كتب يقول:

«لقد وقف أبو سفيان- الذى لم يترك فرصة واحدة تمر لإيذاء النبى

---

(١) واشنطن أرفنج أديب أمريكى ولد فى نيويورك فى عام ١٧٨٣م، عشق الأدب والكتابة وله فيها جولات، وطاف بأوربا فى عدة رحلات ومات فى أمريكا فى ٢٨ نوفمبر ١٨٥٩م وفى طليعة مؤلفاته كتابه حياة «محمد».

وأتباعه إلا انتهزها- أمام النبى بعد فتح مكة فعفا عنه. فما كان من أبى سفيان إلا أن عاد إلى قومه مناديا قائلا:

يامعشر قريش من دخل المسجد الحرام فهو آمن، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن.. ومن دخل داره فهو آمن.

أما عكرمة بن أبى جهل الذى ورث العداوة عن أبيه ففر عند دخول النبى مكة، تاركا زوجته الصغيرة الجميلة تتقدم إلى النبى وتركع عند قدميه طالبة العفو عن زوجها، فتقدم نحوها النبى وأخذ بيدها، معلنا عن عفوه عن زوجها، فأسرعت هذه الزوجة الشابة إلى الشاطئ لتخبر زوجها بهذا العفو قبل أن يرحل من البلاد. ولما علم عكرمة بتسامح النبى وعفوه عاد هو وزوجته معلنا إسلامه. وعندما وقفت نساء قريش أمام النبى بعد فتح مكة رأى بينهن هند زوجة أبى سفيان، تلك الزوجة التى لاكت كبد حمزة بعد قتله وقرضته بأسنانها. وظل النبى ﷺ شاخصا إليها فترة طويلة، فشعرت بالندم والخجل، وأسرعت نحوه راكعة تحت أقدامه طالبة الصفح والغفران قائلة:

أنا زوجة أبى سفيان أطلب الصفح والغفران. فعفا عنها النبى بالرغم مما أبدته من قسوة وعنف، وصفح النبى أيضا عمن صفع ابنته وهى فى طريقها من مكة إلى المدينة صفعة كانت سببا فى القضاء عليها.

فهل وجدنا فى تاريخ العالم كله تسامحا كالذى رأيناه من هذا الرسول الكريم؟.

لقد كان هذا التسامح سلاحا فعالا من أسلحة المسلمين فقد أثرت سماحة النبى وتسامحه فى نفوس العرب فلانت قلوبهم ورقت نفوسهم، فأقبلوا نحوه فى نفوس آمنة وقلوب واعية».

وتناول واشنطن أرفنج بعد ذلك بعوثه السياسية، ورسله إلى القياصرة والملوك فكتب يقول: «أراد النبى أن ينشر دينه فى نطاق واسع ففكر فى الوسائل السياسية والدبلوماسية، فأرسل رسله إلى القياصرة والملوك والأمراء، داعيا إياهم إلى احتضان دينه ونشره، ولذلك لم يلجأ إلى السيف إلا بعد أن استنفد الوسائل السلمية الأخرى.

لقد أرسل رسله إلى كسرى ملك الفرس، وإلى قيصر ملك الروم وإلى المقوقس حاكم مصر، كما أرسلها إلى النجاشى ملك الحبشة.

وعندما ذهب رسوله إلى كسرى قدم إليه رسالة نبيه؛ فأعطاها كسرى لأحد رجاله الذى بدأ يقرأ ويقول:

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن عبد الله... ورسول الله.. إلى كسرى ملك الفرس.

فصاح كسرى غاضبا:

ماذا يقول؟!

هل هناك من يجرؤ على أن يكتب اسمه قبل اسم كسرى؟!

وأمسك بالخطاب فى غضب وحقد ومزقه قبل أن يعرف محتوياته.

ولم يكتف كسرى بذلك بل أصدر أوامره إلى حاكم اليمن بأن يلقى القبض على نبى الإسلام، فأرسل هذا الحاكم رجلين إلى المدينة لهذا الغرض، فلما وصلا إلى المدينة أبلغا النبى رسالة ملكهم.

فقال لهم النبى ﷺ:

هل لكما ملك؟

فبدت الحيرة على وجوههم.

ولما عادا إلى دارهما عرفا أن كسرى قضى نحبه مقتولا بيد ولده فى نفس اللحظة التى كانا يحادثان فيها النبى. أما رسول النبى إلى قيصر الروم فكان أوفر حظا، إذ قابله قيصر مقابلة حسنة، وحمله عند عودته بالهدايا وإن كان لم يرد على الرسالة ردا حاسما.

وفى مصر استقبل المقوقس مبعوث النبى أحسن استقبال وأكرم وفادته وحمله أيضا بالهدايا عند عودته وكان من بين هذه الهدايا بغلة لركوب النبى وجاريتان، فوقع النبى فى حيرة من أمر قبول الجاريتين كمحظيات فتزوج إحداهما وهى ماريا القبطية وتزوج أحد أتباعه الجارية الأخرى، وكان لذلك أثر حسن عند أقباط مصر. أما النجاشى ملك الحبشة فقد قبل الإسلام بمجرد أن تلقى دعوة النبى.

هذه الرسل والبعوث تدل دلالة واضحة على أن النبى لم يلجأ إلى القتال إلا بعد أن استنفد جميع الأساليب السياسية والدبلوماسية. وفى هذا حكمة ومحبة للسلام، وبحث واشنطن أرفنج انتصاراته الحربية وتوسعه السياسى وأثرها فى تغير نفسيته وخلقه فكتب فى هذا الصدد يقول:

«لم توقظ انتصاراته الحربية والسياسية فيه الزهو والفخار، ولم تثر فى نفسه الأنانية والرغبات الشخصية الجامحة. بل بقى النبى بالرغم من هذا كله زاهدا متواضعا كما كان فى بداية حياته.

لقد كانت الثروة والجاه بين يديه ورهن إشارته ولكن لم ينفقها إلا من أجل الدين وإعلاء كلمة الله.

لم يكن فى بيت النبى عند موته دينار ولا درهم. ولا عبد ولا جارية. لقد وضع الله كنوز الأرض كلها بين يديه ولكنه كان زاهدا فيها كلها».

ولكى يصور واشنطن أرفنج موقف الرسول عند موت ابنه كتب يقول:

«وقـد بدا خضوعه لإرادة الله فى وضوح تام عندما كان واقفا بجانب ابنه إبراهيم وهو على فراش الموت.. وكان عزاؤه الوحيد أنه سيلقى ابنه فى الفردوس.

وعندما تبعه إلى قبره كان يدعو إلى دينه ووحدانية ربه ورسالة نبوته وحتى فى ساعات موته كان يردد صلاته ويتحدث عن دعوته.

وكانـت الكلمـات الأخيرة التى اضطربت على شـفتيه رغبة فى أن يدخل ملكوت الله مع الأنبياء السابقين».

* * *

نبى الإسلام كما يصوره ر.ف. بودلى [1]

عرف محمد بالأمانة والجد، فما تخطى الخامسة والعشرين حتى كان مّن أكبر تجار القوافل وأنشطهم فى غرب بلاد العرب، فعهد إليه كثيرون غير عمه بأمر تجارتهم. وقد اختلف محمد عن زملائه من التجار، فبعد انقضاء يومه يقضى وقته فى السوق، أو فى دار صديق حيث يجتمع رجال الفنون ورواة القصص والشعراء. ولطالما أنصت هناك إلى الفلاسفة ورجال الأديان يتحادثون فى أمور دينهم وعقائدهم. وتعاقبت رحلاته فألم خلالها بتاريخ تلك البقاع من آسيا وتقاليدها، وتهيأ له ما تهيأ لأمثاله ممن يقضون أعمارهم فى الرحلات من الحكمة الدنيوية. وإن الدارس لقصة محمد لتبهره حكمته الساطعة، وليرى محمدا شيئا مميزا لا يمت لعصره بصلة، وإنه ليعجب أحيانا من اعتدال أحكامه التى تعالج الأمور العامة فقد كانت أفكاره سابقة لأفكار معاصريه.

لقد كان محمد ﷺ على نقيض من سبقه من الأنبياء، فإنه لم يكتف بالمسائل الإلهية، بل تكشفت له الدنيا ومشكلاتها، فلم يغفل الناحية العملية الدنيوية فى دينه، فوفق بين دنيا الناس ودينهم، وبذلك تفادى أخطاء من سبقوه من المصلحين الذين حاولوا خلاص الناس عن طريق غير عملى. لقد شبه الحياة بقافلة مسافرة يرعاها إله، وأن الجنة نهاية المطاف.

(١) ر.ف. بودلى (١٥٤٥- ١٦١٣م) كولونيل أمريكى اختلط بالعرب ودرس حياتهم الخاصة، فأغراه ذلك إلى دراسة حياة نبيهم فدرسها دراسة واسعة شجعته على أن يكتب كتابا عن حياة هذا الرسول ومظاهر عظمته.

وظلت أخلاقه ثابتة لا تتبدل، أيا كان العمل الذى يعمله، سواء أكان يرعى غنمه فى سكون البادية، أم يبيع عطوره أو أنماطه فى دمشق. ولم تتبدل أمانته، ولم يتغير صدقه، بل بقيت فضائله ثابتة على الأيام، حتى لقب «بالأمين» ولم تفتنه النساء قط، ولم تفتنه الشهوات أيضا، وبقيت غرائزه الجنسية مهذبة. وكان حاضر البديهة، عذب الحديث، ميالا إلى معاشرة الناس، معتنيا دائما بملابسه وهندامه. فكان يلبس للخيام لبسا وللطريق لبسا، ويعتنى بلباسه غاية العناية إذا ما كان فى الدار. وكان يهتم بعمامته وكانت ملابسه نظيفة أبدا، وكان يفضل البياض وإن كان قد لبس الألوان الزاهية فى أيامه الأخيرة.

وما كان محمد ثرثارا، وإن كان صادق الترحاب بمن يقبل عليه. وكان على سليقته العربية لا يتكلم إلا إذا كان هناك ما يصلح للحديث، وقد أعلن أن من الإيمان الإعراض عن اللغو.

وكان متوسط الحال، وقد قال بعضهم فيه يوما: «إنه أخفر من عذراء فى خدرها». ولم يثبت فى تاريخه حتى اليوم أنه أتى أمرا خارقا، وأن الحادث التالى الذى يذكر على سبيل التدليل على فطنته، ليبرهن على أنه كان يتفوق على أقرانه برجاحة عقله، فقد أثرت الأمطار فى الكعبة فتصدعت جدرانها، وأصبح شد بنيانها أمرا ضروريا، وأقبلت قريش على هذا العمل بعد إحجام.

ولما آن وضع الحجر المقدس فى مكانه زاد الخصام واشتد الأمر واستفحل الخطب وكادت تندلع نار الحرب، قال أحدهم: اجعلوا الحكم فيما بينكم أول من يدخل باب الصفا. فلما رأوا محمدا أول من دخل

هللوا غبطة ووضعوا الأمر بين يديه. ففكر قليلا ثم خلع عباءته ونشرها وأخذ الحجر الأسود ووضعه فيها ثم قال ليأخذ كبير كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب. فحملوه جميعا إلى ما يحاذى موضع الحجر من البناء، ثم تناوله ووضعه فى موضعه قبل أن ينشب خلاف آخر.

أما زهد النبى وأتباعه فقد صوره المؤلف بفقرته التالية:

«ولقد أوضح محمد منذ اللحظة الأولى أن الإسلام يقوم على البساطة، ولقد اعتنق أصحابه تلك المبادئ حتى بعد موته. مما يروى أن خالدا قائد جيوش المسلمين فى الشام أيام خلافة عمر اجتمع بقائد الجيش الرومانى تحت خيمة كبيرة وكان الرومان يرتدون الكسى المزخرفة البراقة ويحملون سيوفا مرصعة بالجواهر المتلألئة. أما خالد وأصحابه فكانوا يرتدون رداء الأعراب المقاتلين، دروعا بسيطة، وسيوفهم إلى جانبهم لا بريق فيها ولا زخرف. وألقى المسلمون التحية لدى دخولهم وجلسوا أرضا. فسألهم القائد الرومانى: لم لا يجلسون على المقاعد. فأمعن خالد فيه النظر ثم قال: «لقد خلقنا من الأرض، منها ننبت وإليها نعود، الله خالق الأرض، وما يخلقه الله أثمن من طنافسكم الحريرية».

وفى اليوم التالى هزم خالد وبدوه الزهاد جيش الرومان هزيمة لم يعرف لها مثيل من قبل، واستولوا على القدس.

حتى النبى عندما حقق انتصاره الأكبر، ودخل مكة وحطم أصنام الكعبة، وأتم فيها أهم جزء من رسالته بتطهير بيت الله من الأوثان، نام على قطعة من الحصير، كما كان ينام وهو أجير يقود القوافل للقرشيين ولخديجة بنت خويلد.

فلله در أولئك الزهاد الذين لم يقيسوا الدنيا بما فيها من غرور.. وإنما عالجوها العلاج الذى يؤدى إلى الخير، والذين ساووا أنفسهم بأصغر صغير من أتباعهم، لم تخدعهم المناصب، ولم تغرهم أبهة السلطان. وفى المدينة وضعت صيغة الأذان لدعوة الناس إلى الصلاة، وكانت فكرة موفقة صائبة. وإن صوت المؤذن لينبعث كل يوم خمس مرات مناديا «الله أكبر.. الله أكبر.. أشهد أن لا إله إلا الله.. وأشهد أن محمدا رسول الله..» فإذا بالرنين الحلو ينساب من فوق مآذن المساجد فى أنحاء العالم، وإنه لرنين يهز قلوب الناس ومشاعرهم أيا كانت عقيدتهم.

الرسول كسياسى ودبلوماسى

ومن الحوادث التى تناولها هذا المؤلف بالبحث والتحليل صلح الحديبية عام ٦٢٨م الذى وصفه بأنه نصر سياسى دبلوماسى لنبى الإسلام جدير بالإعجاب والتسجيل.. وفى هذا الصدد كتب بودلى يقول:

«وجد النبى بعد خروجه من مكة أن الأمل فى الاتفاق مع القرشيين ضعيف، وأضعف منه أن يأخذ مكة بقوة السلاح. لهذا سعى لتوطيد سلم بين مكة وبينه بطريقة لا تجرح المسلمين.

وقد واتت محمدا فكرة بديعة هى أن يأخذ رجاله، غير مسلحين، ويشترك فى الحج السنوى إلى الكعبة وسيأمنون الغدر بهم لأنهم سيكونون فى الأشهر الحرم.

وفى فبراير سنة ٦٢٨م اجتمع خارج المدينة ألف وخمسمائة من حجاج المسلمين فى ثياب الإحرام البيض، وتحركوا إلى مكة حتى بلغوا مشارفها. وضربوا خيامهم، وتربص محمد ليرى كيف يتصرف القرشيون.

ولم يكن هؤلاء ينوون الإذعان بسهولة لهذه الجرأة فبعثوا إلى النبى يفاوضونه فى أن يرجع هذا العام ويعود العام التالى فيحج إلى الكعبة، وانتهت المفاوضات بين الطرفين بعقد هذه المعاهدة فى مارس سنة ٦٢٨م. وبمقتضى هذه المعاهدة بين محمد بن عبد الله وسهيل بن عمرو، يتفق الطرفان على أن يعود محمد ورجاله فورا إلى المدينة، ويؤذن لهم بالرجوع فى العالم التالى للحج. وستخصص لهم ثلاثة أيام يؤدون فيها فرائضهم حول الكعبة، وفى هذه الفترة يخلى القرشيون مكة، ويعسكرون خارج أسوارها، وسيكون على الحجيج من أتباع محمد أن يكونوا غير مسلحين إلا بالسيوف المغمدة التى يؤذن للراحلين بحملها للدفاع عن النفس. وتدوم هذه المعاهدة عشرة أعوام. تجرى فيها قوافل الطرفين فى أرض مكة والمدينة بسلام. ويعاد إلى مكة كل المكيين الذين يلجأون إلى المدينة بقصد الإسلام دون موافقة عائلاتهم على ذلك.

ولا شك أن هذه المعاهدة كانت أعظم نصر دبلوماسى حقيقى لمحمد، ففيها اعتراف به كزعيم لجماعة كبيرة من العرب يحسب لها حساب، ولها قوة وحقوق. وإمضاء معاهدة معه بهذا الوصف، بعد طول الطراد والنزال.. نصر وأى نصر!

وكان محمد يتطلع إلى أبعد من ذلك، كان يرى أن المعاهدة مقدمة لها ما بعدها، فإن مجرد استطاعته وضع قدمه فى مكة، كفيل بأن يبقيه فيها أبد الآبدين.

الحج عام ٦٢٩م

وفى العام التالى قصد النبى على رأس الحجاج إلى مكة. فلما أصبحوا على مرمى النظر، خرج المكيون من منازلهم، وتركوا مكة وعسكروا

خارجها، ودخلها المسلمون. فلما لمحوا الكعبة، انبعثت من حناجرهم التكبيرات «لبيك اللهم لبيك».

وبعد أن أدوا مناسك الحج[1]، باتوا ليلتهم حول الكعبة. فلما أصبحوا أمر النبى بلالا أن يؤذن. فأذن قائلا: (الله أكبر.. الله أكبر) وقد كان لهذا الأذان وقع لايبارى.. لقد سمعه أهل مكة جليا. ورأوا آلهتهم جامدة كالصخر، لم تثر ولم تغضب لانتهاك حرمتها، ولم ترسل الصواعق مدرارا على رؤوس أولئك الكفرة.. ولم تفجر ينابيع الأرض أو تشقق جوفها تحت أقدامهم.

رأى القرشيون ذلك وتأثروا به، فكان أن قصد خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة إلى النبى بعد ثلاثة أشهر فى المدينة وأعلنوا إليه إسلامهم.

ولم يقتصر الأمر على أهل مكة، بل لقد قصدته القبائل من كل أنحاء الجزيرة تعلن إسلامها، فما انتهى عام ٦٢٩م حتى رأى محمد أن الوقت قد حان لتصفية الموقف مع أبى سفيان.

وعندما اعتدت قبيلة من حلفاء قريش على أخرى من حلفاء محمد، كان ذلك حجة قوية لهذا النبى، للرد على نقض المعاهدة، ودخول مكة بقوة حراب المسلمين.

أحاط النبى وقواده أمر الحملة بالكتمان التام، فأغلقت كل الطرق الموصلة إلى مكة، ومنعت قبائل البدو من التحرك فى الصحراء، وبذلك لم يعلم العدو شيئا عنها حتى أصبحت على أبواب مكة.

(١) المراد العمرة.

تحرك الجيش فى أول يناير سنة ٦٣٠م وبلغ عشرة آلاف مقاتل كاملى العدة والسلاح، وولى الزبير قيادة المقدمة، يعاونه مائتان من الخيالة. والرسول على رأس قلب الجيش، وتولى عمر تنسيق تقدم هذا الجيش الجرار، فقاده خلال مسالك غير مطروقة، ولم يأذن بدق الطبول أو التكبير، والتقى الجيش فى الطريق بالعباس عم النبى وهو فى طريقه إلى المدينة ليعلن إسلامه، وبذا كان آخر المهاجرين.

وأخيرا حط الجيش رحاله إلى جوار مكة، وأذن عمر بإشعال النيران فاشتعلت منها ألوف ورآها أهل مكة فتولاهم الذعر والفزع، وأوفدوا أبا سفيان لتقصى حقيقة الأمر، فالتقى به العباس إلى جوار معسكر الجيش فنصحه بالمبادرة إلى التسليم، قبل أن يدمر محمد مكة.

وفى الصباح أعلن أبو سفيان بين يدى النبى إسلامه وأنه سيسلم مكة ففرح النبى.. هاهى ذى مكة تسلم إليه دون أن تراق الدماء ودون أن يقتتل الأخوة وأبناء العمومة.

وطلب محمد من أبى سفيان أن يأمر الناس بالبقاء فى منازلهم «فمن فعل فهو آمن».

وعاد أبو سفيان فأعلن ذلك للناس فدخلوا دورهم ولزموها، واستعرض محمد جيشه، وسلم بيرق المسلمين لعلى. واحتاط من أى خيانة بأن طوق مكة أولا، ثم دخلها من جهاتها الأربع فى وقت واحد. فدخلها خالد على رأس الخيالة من الجنوب وقاد الزبير جماعات البدو على جمالهم من الشمال ومن الغرب تقدم أهل المدينة بقيادة سعد بن عبادة أما من الناحية الشرقية فتركت للمحاربين القدماء برئاسة أبى عبيدة.

ثم دخل النبى وقادته تحيط به فرقة رماة الرماح المدرعين، بقيادة أسد الصحراء العربية على بن أبى طالب.. وتم كل ذلك بنظام بديع.. دون أى مقاومة، فيما خلا حادثة واحدة. وقعت بين طابور خالد وصفوان ابن أمية وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل. وانتهت فى دقائق بقمع التمرد.

وبدل محمد ثيابه الحربية، وطوف بالكعبة، ثم دعا أعوانه الذين صحبوه منذ البداية، فأخذوا فى تحطيم أصنام الكعبة، وهم يرددون «جاء الحق وزهق الباطل.. إن الباطن كان زهوقا».

* * *

نبى الإسلام فى مرآة الفكر الروسى

تولستوى يتحدث عن نبى الإسلام

(١٨٢٨- ١٩١٠م)

هــو الكونت **ليو تولســتوى** ابن الجنرال تولســتوى وحفيد الكونت تولســتوى السياســى الروسى، نشــأ جنديا ثم اشــتغل بإصلاح الهيئة الاجتماعية فأخذ يكتــب القصص يودعها مذهبه حتى ذاع صيته وطبق آفاق العالم.. وتصدى لقادة الأديان وصاح بهم صيحات انتقاد وســخرية حتى اضطروا إلى الحكم بإلحاده.

لقد كان هذا الفيلسوف الروسى كاتبا منصفا، فعندما رأى تحامل أهل الأديان الأخرى على الدين الإســلامى، هزته الغيرة على الحق إلى وضع عجالة عن نبى الإسلام وبعض تاريخ حياته فقال فيها: «ولد نبى الإسلام فى بلاد العرب من أبوين فقيرين وكان فى حداثة ســنه راعيا، يميل إلى العزلة والانفراد فى البرارى والصحارى، متأملا فى الله خالق الكون.

لقــد عبد العرب المعاصرون له أربابا كثيرة، وبالغوا فى التقرب إليها واسترضائها، وأقاموا لها العبادات وقدموا لها الضحايا المختلفة.

وكان كلما تقدم به العمر ازداد اعتقادا بفساد تلك الأرباب، وأن هناك إلها واحدا حقيقيا لجميع الناس والشعوب.

وقد ازداد إيمان محمد بهذه الفكرة فقام يدعو أمته وأهله إلى فكرته، معلنــا أن الله اصطفاه لهدايتهم وعهد إليه إنارة بصائرهم وهدم دياناتهم الباطلة.. وراح يعلن عن عقيدته وديانته.

وخلاصة هذه الديانة التى نادى بها هذا الرسول هو أن الله واحد- لا إله إلا هو- ولذلك لا يجوز عبادة غيره.. وبأن الله عادل ورحيم بعباده.. وأن مصير الإنسان النهائى متوقف عليه وحده، فإن الله يؤجره فى الحياة الآخرة أجرا جسنا.. وإذا خالف شريعة الله وسار على هواه فإنه يعاقب فى الآخرة عقابا أليما.. وأن الله تعالى يأمر الناس بمحبته ومحبة بعضهم بعضا، ومحبة الله تكون بالصلاة، ومحبة الناس تكون بمشاركتهم فى السراء والضراء.. وأن الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر يقتضى عليهم أن يبذلوا وسعهم لإبعاد كل ما من شأنه إثارة الشهوات النفسية والابتعاد عن الملذات الدنيوية.. وإنه يحتم عليهم ألا يخدموا الجسد ويعبدونه، بل عليهم أن يخدموا الروح ويهذبوها.

ومحمد لم يقل عن نفسه أنه نبى الله الوحيد بل اعتقد أيضا بنبوة موسى وعيسى وقال إن اليهود والنصارى لا يكرهون على ترك دينهم.

وفى سنى دعوته الأولى احتمل كثيرا من اضطهادات أصحاب الديانة القديمة شأن كل نبى قبله نادى أمته إلى الحق، ولكن هذه الاضطهادات لم تثن من عزمه بل ثابر على دعوة أمته.

وقد امتاز المؤمنون كثيرا عن العرب بتواضعهم وزهدهم فى الدنيا وحب العمل والقناعة وبذلوا جهدهم فى مساعدة إخوانهم فى الدين عند حلول المصائب بهم.

ولم يمض على جماعة المؤمنين زمن طويل حتى أصبح الناس المحيطون بهم يحترمونهم احتراما عظيما ويعظمون قدرهم، وراح عدد المؤمنين يتزايد يوما بعد يوم.

ومن فضائل الدين الإسلامى أنه أوصى خيرا بالمسيحيين واليهود ورجال دينهم، فقد أمر بحسن معاملتهم. وقد بلغ من حسن معاملته لهم أنه سمح لأتباعه بالتزوج من أهل الديانات الأخرى.. ولا يخفى على أصحاب البصائر العالية ما فى هذا من التسامح العظيم.

ثم ختم كلمته قائلا:

لا ريب أن هذا النبى من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة ويكفيه فخرا أنه هدى أمته برمتها إلى نور الحق وجعلها تجنح للسلام وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا. ويكفيه فخرا أنه فتح لها طريق الرقى والتقدم وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتى قوة وحكمة وعلما، ورجل مثله جدير بالإجلال والاحترام.

ولقد كانت آراء هذا الفيلسوف الروسى موضع تقدير الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فكتب لهذا الفيلسوف يقول:

أيها الحكيم الجليل مسيو تولستوى

لم نحظ بمعرفة شخصك ولكننا لم نحرم التعارف مع روحك، سطع علينا نور من أفكارك، وأشرقت فى آفاقنا شموس من آرائك ألفت بين نفوس العقلاء ونفسك، هداك الله إلى معرفة سر الفطرة التى فطر الناس عليها ووفقك إلى الغاية التى هدى البشر إليها، فأدركت أن الإنسان جاء هذا الوجود لينبت بالعلم، ويثمر بالعمل، ولأن تكون ثمرته تعبا ترتاح به نفسه، وسعيا يبقى ويربى جنسه، وشعرت بالشقاء الذى نزل بالناس لما انحرفوا عن سنة الفطرة، وبما استعملوا قواهم التى لم يمنحوها إلا ليسعدوا بها، فيما كدر راحتهم، وزعزع طمأنينتهم.

ونظـرت نظرة فى الديـن مزقت حجب التقاليـد، ووصلت بها إلى حقيقـة التوحيد، ورفعـت صوتك تدعو الناس إلى مـا هداك الله إليه، وتقدمت أمامهم بالعمل لتحمل نفوسـهم عليه، فكما كنت بقولك هاديا للعقـول كنت بعملـك حاثا للعزائـم والهمم، وكما كانـت آراؤك ضياء يهتـدى به الضالون كان مثالك فى العمل إمام يقتدى به المسترشـدون. وكما كان وجودك توبيخا من الله للأغنياء كان مددا من عنايته للضعفاء الفقراء.. وإن أرفع مجد بلغته، وأكبر جزاء نلته على متاعبك فى النصح والإرشـاد، هو هذا الـذى سماه الغافلون بالحرمـان والإبعاد، فليس ما حصل لك من رؤسـاء الدين سوى اعتراف منهم أعلنوه للناس أنك لست مـن القـوم الضالين، فاحمد الله على أن فارقوك فـى أقوالهم كما كنت فارقتهم فى عقائدهم.

هذا وإن نفوسـنا لشـيقة إلى ما يتجدد من آثار قلمك، فيما تسـتقبل من أيام عمرك، وإنا نسـأل الله أن يمـد فى حياتك ويحفظ عليك قواك ويفتـح أبواب القلوب لفهم قولك، ويسـوق النفوس إلى التأسـى بك فى عملك والسلام.

* * *

محرر المرأة

كانت المرأة عندهم كمتاع يقتنى، وسلعة يستكثر منها، ولا يهم الرجل بعد ذلك ما يصيب الأسرة من تفكك وانهيار، ولا ما يترتب على تعدد الزوجات من عداوة وبغضاء بين النساء، وبين الأبناء، حتى تصبح الأسر حربا على نفسها، ومصدر نزاع وعداوة بين أفرادها.

وكان الزوج لا يعنيه الأمر سواء عدل بين أزواجه أو جار، سوى بينهن فى الحقوق أو المال، فكانت حقوق الزوجات مهضومة، ونفوسهن ثائرة، وقلوبهن متنافرة.

وناهيك بالآثار السيئة التى تصيب الأسرة فتقوض أركانها وتشيع بين أفرادها العداوة والبغضاء والتنابذ والشحناء من جراء هذه الفوضى العائلية.

وليت الأمر كان قاصرا على تعدد الزوجات إلى غير حد فى أبشع الصور وأوخم العواقب. بل كان الرجل منهم إذا قابل آخر معه ظعينته. «أى امرأة فى الهودج» هجم عليه فتقاتلا بسيوفهما فإن غلبه أخذ منه ظعينته واستحلها لنفسه ظلما وعدوانا.

ويكفى لكى ندلل على بؤس المرأة العربية وسوء حالها قبل الدعوة المحمدية أن نسجل أمرين: أولهما وأد البنات خشية الفقر أو العار.. وثانيهما حرمان المرأة من أن ترث الرجل بعد وفاته.

وجاءت الدعوة المحمدية فحررت المرأة من فوضى الجاهلية وأخرجتها من الظلمات إلى النور، ومنحتها كافة حقوقها، وأعادت إليها حرياتها كاملة غير منقوصة.

وقد اعترف المستشرق الفرنسى أندريه سرفيه بداية القرن العشرين بفضل هذا الرسول فى كتابه: «الإسلام ونفسية المسلمين» فقال:

«لا يتحدث هذا النبى عن المراه إلا فى لطف وادب.. كان يجتهد دائما فى تحسين حالها ورفع مستوى حياتها.. لقد كان النساء قبله لا يرثن بل كانوا متاعا يورث لأقرب الرجال، وكأنهن مال أو رقيق. وعندما جاء الرسول قلب هذه الأوضاع فحرر المرأة وأعطاها حق الإرث.

ثم ختم كلمته قائلا:

«لقد حرر محمد المرأة العربية، ومن أراد التحقيق بعناية هذا النبى بها فليقرأ خطبته فى مكة التى أوصى فيها بالنساء خيرا وليقرأ أحاديثه المتباينة».

ما أصدق هذا القول!

وما أكثر دفاع النبى عن المرأة وحقوقها!

ألم يقل فى خطبته التى قالها فى حجة الوداع:

«إن لنسائكم عليكم حقا وإن لكم عليهن حقا، لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم، ولا يدخلن أحدا تكرهونه بيوتكم إلا بإذنكم، ولا يأتين بفاحشة، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع، وتضربوهن ضربا غير مبرح، فإن انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وإنما النساء عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، فاتقوا الله فى النساء واستوصوا بهن خيرا». أليس هو القائل:

«أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا، وخياركم خياركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى.. وما أكرم النساء إلا كريم، ولا أهانهن إلا لئيم».

أليس هو القائل أيضا:

«يابنى إذا دخلت على أهلك فسلم، وليكن سلامك بركة عليك وعلى أهلك». وعن ابن عباس: «إنى لأتزين لامرأتى كما أحب أن تتزين لى». ولها رأيها فى تزويجها وليس لوليها أن يعدو إذنها ويقسرها على من لا تريد إن كانت رشيدة. وعن عائشة رضى الله عنها: أن فتاة قالت للنبى ﷺ: إن أبى زوجنى من ابن أخيه ليرفع بى خسيسته وأنا كارهة. فأرسل النبى إلى أبيها فجاء فجعل الأمر إليها. فقالت يا رسول الله: إنى قد أجزت ما صنع أبى، ولكن أردت أن أعلم النساء أن ليس للآباء من الأمر شيء».

ومن أعجب المصادفات أن يجتمع ماكون فى زمن النبى أى فى سنة ٥٨٦ ميلادية لبحث: هل المرأة إنسان؟ وبعد بحث ومناقشة وجدل قرر أنها إنسان ولكن خلقت لخدمة الرجل وحده.. ولم يكد يصدر هذا القرار الجائر فى أوربا حتى نقضه محمد ﷺ فى بلاد العرب إذ رفع صوته قائلا:

إنما النساء شقائق الرجال

بل قال للرجال:

ألستم حريصين على دخول الجنة؟ هذه الجنة التى تحرصون عليها هى تحت أقدام الأمهات وكل امرأة أم.

وبذلك علم العالم أجمع أن المرأة إنسان مهذب، له من الحقوق ما للرجال من حقوق فى وقت كانت فيه أوربا تنظر إلى المرأة نظرة سخرية واحتقار.

وفى القرن السابع الميلادى عقد مؤتمر عام فى روما ليبحث فيه المجتمعون شئون المرأة فقرروا أنها كائن لا نفس له.. وعلى هذا فليس لها الحق فى أن ترث الحياة الآخرة.

ووصفها هذا المؤتمر أيضا بأنها رجس كبير، وحرم عليها ألا تأكل اللحم وألا تضحك وألا تتكلم.. ونادى بعضهم بوضع أقفال على فمها.

وفى هذا الوقت كانت المرأة العربية تأخذ طريقها نحو النور وتحتل مكانتها الرفيعة فى المجتمع العربى وتقف بجانب الرجال فى معترك القتال.

لقد قالت الربيع بنت معوذ:

«كنا نغزو مع رسول الله ونسقى القوم ونخدمهم، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة».

وعن أم عطية الأنصارية قالت:

«غزوت مع رسول الله ﷺ سبع غزوات، أخلفهم فى رحالهم وأصنع لهم الطعام وأداوى الجرحى».

وعن أنس قال:

«كان رسول الله ﷺ يغزو بأم سليم ونسوة معها يسقين الماء ويداوين الجرحى».

فمن بعد هذا كله يكابر ولا يعترف لهذا النبى العظيم بأنه أول من نادى بتحرير المرأة؟!. ومن هنا بعد هذا كله لا يعد هذا النبى الكريم منقذ المرأة من الذل والطغيان والعبودية.

ألا يحق بعد هذا كله أن يصف أندريه سرفيه نبينا الكريم بأنه محرر المرأة ومنقذها؟!

ألا يحق بعد هذا كله لمسيو ريفيل أن يقول بدوره:

«إننا لو رجعنا إلى زمن هذا النبى لما وجدنا عملا أفاد النساء أكثر مما فعله هذا الرسول، فالنساء مدينات لنبيهن بأمور كثيرة رفعت مكانتهن بين الناس».

وهذا أيضا هو ما دفع العالم الألمانى (دريسمان) (١٨٤٥- ١٩٣٤م) أن يسجل قوله:

«لقد كانت دعوة محمد إلى تحرير المرأة السبب فى نهوض العرب وقيام مدنيتهم.. وعندما عاد أتباعه وسلبوا المرأة حقوقها وحريتها كان ذلك من عوامل ضعفهم واضمحلال قوتهم».

وقد كتبت جريدة **المونيتور** الفرنسية تصور احترام الإسلام ونبيه للمرأة فتقول:

«لقد أحدث الإسلام ونبيه تغييرا شاملا فى حياة المرأة فى المجتمع الإسلامى.. فمنحها حقوقا واسعة تفوق فى جوهرها الحقوق التى منحناها للمرأة الفرنسية.. أما تعدد الزوجات فقد أصبح اليوم أخف وطأة مما كان عليه.. ويخف انتشار هذه الظاهرة يوما بعد يوم.. ويجب علينا أن نلفت الأنظار إلى شرط موجود عند المسلمين، وهو أن من حق المرأة أن تشترط على زوجها فى عقد زواجها عدم الزواج بأخرى، فإذا لم يحترم هذا الشرط كانت امرأته فى حل من أمرها».

أما الكونت **هنرى دى كاسترى** (١٨٥٠-١٩٢٧م) فقد تناول عقد الزواج عند المسلمين فقال:

«إن عقد الزواج عند المسلمين عقد يخول للمرأة حقوقا أدبية وحقوقا مادية من شأنها إعلاء منزلة المرأة فى الهيئة الاجتماعية، فلها أن

تشـترط على زوجها عدم التزوج بغيرها أو غير ذلك من الشروط، فإن لم يف بهذه الشروط جاز للمرأة أن تطلب الطلاق».

ألا يحـق لنـا بعد هذا كله أن نصف هذا النبـى الكريم بأنه محرر المرأة ومنقذها؟!

* * *

الإسلام والسيف

«أنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان أم بأية طرق أخرى. فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار.. لندعها تكافح بأيديها وأرجلها وأظافرها».

توماس كارليل

لقد تعرض **توماس كارليل** لأساليب الرسول فى نشر دعوته فقال: «كانت نية هذا النبى قبل عام ٦٢٢ ميلادية أن ينشر دينه بالحكمة والموعظة الحسنة، وقد بذل فى سبيل ذلك كل جهد جهيد، ولكنه وجد الظالمين لم يكتفوا برفض رسالته ودعوته وعدم الإصغاء إليها، بل عمدوا إلى إسكاته بشتى الطرق، من تهديد ووعيد واضطهاد، حتى لا ينشر دعوته أو يصور رسالته.

وهذا ما دفعه إلى الدفاع عن نفسه والدفاع عن دعوته وكأن لسان حاله يقول: أما وقد أبت قريش إلا الحرب فلتنظروا إذن أى قوم نكون!

لقد أصاب هذا الرسول فى رأيه، فإن أولئك القوم أغلقوا آذانهم عن كلمة الحق والصدق، وأبوا إلا التمادى فى الباطل، فاستباحوا الحرمات ونهبوا الممتلكات، وقتلوا الأنفس التى حرم الله قتلها إلا بالحق».

واستطرد توماس كارليل يرد على القائلين بأن هذا النبى نشر دينه بحد السيف فيقول:

«أرى أن الحق ينشر نفسه بأى طريقة حسبما تقتضيه الحال.. ألم تروا أن النصرانية كانت لا تأنف أن تستخدم السيف أحيانا، وحسبكم

ما فعله شـارلمان (٧٤٢- ٨١٤م) بقبائل السكسون.. وأنا لا أحفل أكان انتشار الحق بالسيف أم باللسان، أم بأية طريقة أخرى، فلندع الحقائق تنشر سلطانها بالخطابة أو بالصحافة أو بالنار.. لندعها تكافح وتجاهد بأيديهـا وأرجلها وأظافرها فإنها لن تهـزم أبدا.. ولن يهزم منها إلا ما يسـتحق الفناء.. فالحقائق فى حرب لا حكـم فيها إلا للطبيعة التى لا تحترم منها إلا القوى الصحيح.

فحبـوب القمح عندما نأخذهـا إلى باطن الأرض، وكثـيرا ما تكون مخلوطـة بقشـور وتبن وقمامة وتراب، فـإذا ألقيتها وهى مختلطة بكل هذه الشوائب فى جوف الأرض العادلة البارة، فإنها لا تعطيك إلا قمحا خالصا نقيا. أما الشـوائب والقذى فإنها تبتلعه فى سـكون وتدفنه فى باطنها دون أن تذكر عنه شيئا.. وما هى إلا فترة حتى نرى القمح ناميا يهتز كأنه سبائك الذهب.

هكذا الطبيعة فى جميع شئونها، فهى حق لا باطل، ولا تشترط فى الشىء إلا أن يكون صادقا حرا.. فإذا كان كذلك حمته وحرسته وصانته وقوته، وإذا كان غير ذلك تنكرت له وتركته بلا حماية وبلا صيانة.

لهذا ترى لكل شـىء تحميه الطبيعة روحا من الحق والصدق. أليس شأن حبوب القمح هذه شأن كل حقيقة كبرى جاءت إلى هذا الوجود أو ستجىء إلى هذا الوجود؟!

فالحقائـق تأتى إلى معترك الحياة، ثـم يجىء يوم يظهر فيه نقصها وخطؤها فتموت وتذهب.. نعم يموت جسـم كل حقيقة ويذهب. ولكن الروح تبقى أبدا. كل ما هنالك أن الروح تتخذ ثوبا أطهر وبدنا أشرف.

وتظـل روح الحقيقة وجوهرها تنتقل من الأثـواب والأبدان، أى إن جوهر الحقيقة لا يموت.

الأمر المهم فى الموضوع ليس فى نوع الثوب الذى لبسـته الروح، إنما فـى الروح ذاتها.. وهل هى حق؟.. وهل هى منبعثة من أعماق الطبيعة دون أن تهتم بنقاء الشـىء أو عدم نقائه فالطبيعة عندما تحكم لا تقول: أفيك شوائب وأكدار؟ إنما تقول: أفيك جوهر حق وروح صدق أم لا؟.

وكأنهـا تريـد أن تقول بعبـارة أخرى: أفيك قمـح؟ فهى لا تهمها القشور والشوائب فالطبيعة ستبتلعها ولا يبقى إلا قمحا صافيا.

لقد جاء هذا الرسول من طريق الرفق والأناة والمنطق فأبوا إلا استرسالا فى الطغيان والاستكبار، وأبوا إلا ضلالا وفسادا. فلا غرو إذن أن يتدخل السـيف ليقول كلمته. ولهذا قضى محمد بقية عمره، وهى عشـر سنين أخرى فى حرب وجهاد ونضال.

هـذه هى كلمات توماس كارليل التى يرى فيها أن من حق الإسـلام أن ينشر دينه بشتى الوسائل، ولكنه نسى أن يقول إنه عندما لجأ النبى وأتباعه إلى الفتح والغزو لنشر دين الله، لم يكن ذلك مصحوبا باضطهاد أو تعذيب، بل ترك أمر الدخول فى الدين الجديد إلى رغبة الناس أنفسهم.

ولكى نسـجل ذلك بأقلام كتاب الغرب أنفسـهم نذكر الفقرة التالية التى كتبها **الكونت هنرى دى كاسـترى** فى كتاب له بعنوان «الإسلام» حيث قال:

«لجأت شـيعة محمد ﷺ إلى الفتح، وهو سـبب لا حرج فيه، فنشر القرآن جناحيه خلف جيوشـهم المظفرة التى سـارت سير الصواعق إلى

الشـام وشمال إفريقيا وعبرت البحـار، إلا إنهم مع ذلك لم يتركوا أثرا للظلم والتعسـف فى طريقهم، فلم يقتلوا أمة أبت الإسـلام.. وكانوا إذا التقوا بأمة خيروها بين واحدة من ثلاثة: الإسـلام أو الجزية أو تحكيم الحرب حتى تضع أوزارها».

وليـس هناك مثل واحـد يذكر للدلالة على أن محمدا أرسـل حملة واحدة يحمل فيها أمة بالقوة على اعتناق الإسلام.

وليسـت هناك حادثة واحدة سـأل النبى فيها إنسـانا أن يؤمن به وسامه العذاب عندما رفض ذلك.

لم يحـدث شـىء من هـذا قط، بل علـى النقيض منـه، فقد عمل الكافرون جاهدين على ارتداد المسلمين عن دينهم.

ومن جانب آخر لم تحمل حروب المسلمين طابع العنف والقسوة.

وفى هذا الصدد يعترف الكونت هنرى دى كاسترى ويقول:

«لا حرج فى أن ينشـر القرآن جناحيه خلف جيوشه المظفرة التى لم تترك وراءها أى أثر للعسـف والظلم، لقد زحف المسلمون فى كل اتجاه ولكنهم لم يقتلوا أمة أبت الإسلام.

ولو قارنا بين إغارة المتبربرين وبين إغارة المسلمين التى تلتها لوجدنا أن الثانيـة أخف ضررا وأكثر تسـامحا، هكذا كانت الأوامر التى سـار عليها المسلمون فى مطلع عصرهم.

ويحسـن هنا أن نقابل بين هذه الأمور وبين تعاليم الكتاب الخامس من الزبور فيما يتعلق بحصار المدائن ومعاملة الكلدانيين حيث نجد «إذا اقتربت من مدينة لتحاصرها فاعرض عليها الأمان، فإن قبلته فقد سـلم

كل من فيها، وإن أبت وبادأتك بالعدوان فشـدد الحصار عليها، ومتى وفقك الله للظفر بها فحطم رأس كل ذكر فيها بحد الحسام».

هذه هـى كلمات الكونت هنرى دى كاسـترى التى تدل فى وضوح وجـلاء على أن المسـلمين لم يخوضوا غمار المعارك مـع أمة إلا بعد أن يخيروها بين واحدة من ثلاثة: الإسلام أو الجزية أو الحرب.

وفى موضع آخر يتحدث الكونت عن تسامح المسلمين فيقول:

«لما اسـتولى عمر على مدينة أورشليم لم يلحق بالمسيحيين أى ضرر، ولكن عندما اسـتولى المسـيحيون على تلك المدينة قتلوا المسلمين من غير إشـفاق وأحرقوا اليهود بلا رحمة. لقد انتشـر الإسلام فى جميع القارة الآسـيوية بين القرن الثانى عشر والرابع عشر، ولم ينشأ عنه عسف ولا اضطهـاد، حتى إن حكام المسـلمين احترموا مدينة **بيناريس** لاعتبارها عند أهل الهند مدينة مقدسة، مع أن أهلها كانوا وقتئذ من البراهمة.

مـن هذا يتحقق أن الدين الإسـلامى لم ينتشـر بالعنف والقوة، بل الأقرب للصواب أن يُقال: إن كثرة مسـالمة المسـلمين ولين جانبهم كان سببا قويا فى انكماش دولتهم بعد ذلك».

ثم استطرد يقول:

«إن أكبر دليل على أن الإسـلام قام على أكتاف البيان والحجة قبل أن يقوم على السيف بقاء الإسلام موطد الدعائم بالرغم من ضعف الدولة العربية الكبرى دون أن تعود أى أمة إلى ما كانت عليه».

* * *

نبى الإسلام
فى المؤتمرات الدولية والندوات العلمية

فى المؤتمرات الدولية يجتمع علماء الدول كلها على اختلاف أجناسهم وألوانهم وديانتهم فى مكان واحد ليتبادلوا الرأى والمشورة فى الآراء العلمية والمشكلات الدولية. وفى العادة لا تضع المؤتمرات قراراتها إلا بعد أن ينال موضوع القرار أغلبية الأعضاء.

وما أكثر عددهم!

وما أكبر عقولهم!

ولهذا كانت قرارات هذه المؤتمرات الدولية موضع ثقة وصدق ويقين.

والغريب فى الأمر أن تأتى هذه الآراء والقرارات فى القرن العشرين مطابقة لما جرى على لسان نبى الإسلام فى القرن السابع الميلادى، أى بعد مضى أربعة عشر قرنا من الزمان.

ألا يحق له إذن أن يكون عالما بيولوجيا[1] ؟!

ألا يحق له إذن أن يكون عالما نفسانيا؟!

ألا يحق له إذن أن يكون فيلسوفا اجتماعيا؟!

فى عام ١٩٢٨م عقد المؤتمر الدولى التاسع عشر لمكافحة المسكرات فى مدينة أنفرس ببلجيكا.. لبحث الموضوعات التالية:

– الأول: بحث مقدم من اللجنة الطبية للمؤتمر الذى يقرر عدم فائدة الخمر فى تدفئة الأجسام ووقايتها من أثر البرد.

(١) البيولوجى علم الحياة.

– الثانـــى: بحث مقدم من اللجنة الطبية للمؤتمر وموضوعه.. جرعة طود (شراب من الوسكى المعتق).. وهل تصلح كعلاج للضعف والهزال؟.

– الثالـــث: بحـــث مقدم مـــن اللجنة الاجتماعيـــة للمؤتمر. هل فى تحريم الخمر مصادرة للحريات العامة؟

وفى هذا المؤتمر العالمى وقف كبير أطباء مستشفى «فيينا» قائلا:

لقـــد كان رجال الطب علـــى خطأ عظيم إذ كانـــوا يوصون بتعاطى جرعات من المشـــروبات الكحولية للاســـتفادة منها فى مقاومة البرد، لما كان يبدو من تأثيرها الظاهر فى تدفئة الجسم عند تناولها. واستطرد هذا الطبيب قائلا:

إن الشـــعور بالدفء فى هذه الحال إنما هو شـــعور كاذب، إذ يعقبه انخفاض درجة حرارة الجسم.

ثم فتح باب المناقشة فقال أحد الحاضرين:

كان أهل جزيرة أيســـلندا، وهى من أشـــد البلدان بردا، يســـتعينون على مقاومة البرد بتعاطى المشـــروبات الروحيـــة فكثرت بينهم الوفيات إلى حـــد أقلق بال ولاة الأمور، فألفوا لجنـــة لهذا الغرض، وأثبتت هذه اللجنة أن كثرة الوفيات فى الجزيرة راجع إلى أن القوم يستنفدون حرارة أجســـامهم بما يتعاطون من المسكرات، فيصعد الدم من داخل الجسم إلى سطح الجلد فتبيده برودة الجو تدريجيا، حتى تأتى على آخره فتنتهى الحياة بانتهاء الحرارة.

وهـــذه الظاهرة هى التى دفعت برلمان أيســـلندا على إصدار تشـــريع يحرم الخمر فى البلاد ثم نهض من بعده مبعوث بلاد السويد فقال:

أريد ألفت أنظار أعضاء المؤتمر إلى ماحدث للدكتور سكوت (١٢٦٦-١٣٠٨م) وصحبه فى رحلتهم عندما ذهبوا فى منطاد لارتياد القطب الجنوبى. فقد أدرك سكوت تأثير الخمر فى الأجواء الباردة فأوصى أصحابه بألا يشربوا خمرا حتى لا يفقدوا مناعة أجسامهم على تحمل البرد.. وعندما نسى أصحابه النصيحة وعمدوا إلى زجاجات الويسكى، كانت النتيجة كما دونها الدكتور سكوت فى مذكراته: «إن الذين اتبعوا نصيحته واجتنبوا شرب الخمر نجوا وحدهم من الموت دون غيرهم».

عندئذ قام ممثل مصر فى هذا المؤتمر وهو الأستاذ أحمد غلوش يقول: إن الضحايا البشرية التى أشار إليها حضرات الأعضاء قد سلم المسلمون من أمرها بسبب اتباعهم أوامر نبيهم محمد ﷺ ، فقد حذرهم من شرب الخمر وأوضح لهم أنها لا تنفع فى مقاومة البرد.

ثم ترجم لهم الحديث النبوى التالى:

«عن ديلم الحميرى قال سألت النبى ﷺ وقلت: يا رسول الله إنا بأرض باردة نعالج فيها عملا شديدا، وإنا نتخذ شرابا من هذا القمح نتقوى به على أعمالنا وعلى برد بلادنا.

قال: هل يسكر؟

قلت: نعم.

قال: فاجتنبوه.

قلت: إن الناس غير تاركيه.

قال: فإن لم يتركوه فقاتلوهم».

عندئذ دهش أعضاء المؤتمر وقابلوا كلمته بالتصفيق والاستحسان. وطلبوا منه أن يملى عليهم نص الحديث النبوى.

وعندما حان وقت الكلام عن جرعة طود وعدم الفائدة منها فى التداوى وقف أحد أعضاء المؤتمر قائلا:

هناك آلاف الآلاف من المرضى، كنا نحن معشر الأطباء نوصيهم ونصف لهم أنواعا من الخمر تعجيلا لشفائهم، والحقيقة إننا كنا نعجل بالقضاء عليهم.

فما كان من ممثل مصر فى هذا المؤتمر إلا أن وقف قائلا:

لقد سبقكم إلى هذا نبى الإسلام فقد أوضح لقومه أن الخمر لا تنفع للتداوى. ثم ترجم لهم الحديث النبوى التالى: «عن طارق الجعفى رضى الله عنه أنه سأل النبى ﷺ عن الخمر فنهاه عنها. فقال: إنما أصنعها للدواء. فقال: إنها ليس بدواء ولكنها داء». رواه مسلم وأبو داود الترمذى.

وراح ممثل مصر فى هذا المؤتمر يعقب على هذا الحديث النبوى ويقول:

«لقد جاء نبينا الكريم محمد ﷺ بهذه الحقيقة العلمية الواضحة منذ آلاف السنين.. ونحن معشر المسلمين نتمسك بهذا النصح الثمين؛ حتى ليفضل أحدنا أن يقضى نحبه على أن يشرب دواء فيه مسكر حذرا من مخالفة الله ونبيه».

فعجب أعضاء هذا المؤتمر من مطابقة آرائهم ونظرياتهم الجديدة لأقوال نبى الإسلام وأدركوا أنهم لم يأتوا بجديد.

وعندما جـاء دور الكلام عن موضوع هل فـى تحريم الخمر مصادرة للحريات العامة؟ وقف أحد أعضاء المؤتمر يقول: تبا لنا معشر الأوربيين مادمنا لا نطبق تحريم هذه السـكرات.. إن ضحاياها لا تقل عن ضحايا الأوبئة والحروب.. يجب أن نمنع الناس من إدمان الخمر ولو بالالتجاء إلى القوة والعنف فوقف ممثل مصر يقول:

ما جئنا بجديد! فسأل المجتمعون وكيف؟ فعاد يجيب:

«الدين الإسـلامى لم يكتف بتحريم الخمر وشـربها وبيعها وصنعها وحملهـا وتقديمها وربـح ثمنها. بل أنزل بشـارب الخمر عقوبة بدنية وهلى جلده ثمانين جلدة، زجرا له وصونا للحريات العامة من أن تكون عرضة لاعتداء مدمنى الخمر».

فعـلا هتاف الأعضاء وأبدوا إعجابهم الشـديد بمـا سمعوا، بعد أن أدركوا أن نبى الإسـلام قد سـبقهم إلى هـذه الآراء والأفكار التى زعموا أنها جديدة والتى جاءوا لبحثها والتشاور فى أمرها من أقصى المعمورة.

* * *

وفى يوم من الأيام اجتمع بعض علماء الغرب فى ندوة لهم يتباحثون ويتجادلون وكان بينهم طالب شرقى.

وطـال بهم الجدل عن الحجر الصحـى... متى بدأ؟... وكيف بدأ؟ وتشـعبت الأمـور أمامهم، وتباينت وجهات النظر، فـإذا بهذا الطالب الشرقى يضع حدا لهذا الجدل الخاطئ بقوله:

إن فضـل الحجر الصحى لا يرجع إلى أوربا... فأول من فكر فيه هو نبى الإسلام... محمد ﷺ.

فصاح الجميع فى دهشة وحيرة قائلين: وكيف كان ذلك؟

فعاد الطالب الشرقى يوضح ويقول: إن نبى الإسلام هو أول من قال: «إذا سمعتم الطاعون فى أرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها».

ثم التفت إليهم هذا الطالب وقال: أليس هذا هو أفضل ما وصل إليه البحث العلمى والحجر الصحى الحديث؟!

وطالب هؤلاء العلماء بالحصول على نص هذه الأحاديث، فما كان من هذا الطالب إلا أن عاد إلى بيته ليحضر لهم نص هذه الأحاديث النبوية وترجمتها.

وبذلك تبدد جدلهم وانتهى نقاشهم بعد هذه الحقيقة الساطعة وصاح واحد منهم.

لقد كان نبيكم عالما بيولوجيا.

فتمتم الطالب وعاد يقول: يعد هذا النبى أول من فكر فى قانون الحجر الصحى للحيوان فقد قال «لايورد ممرض على مصح، وإن الجرب الرطب قد يكون بالبعير، فإذا خالط الإبل أو حككها أو آوى إلى مباركها وصل إليها بالماء الذى يسيل منه».

فعجب العلماء من أن تأتى هذه الحقائق العلمية عن الحجر الصحى على لسان هذا النبى!

ثم استطرد الطالب الشرقى يقول: ألا يحق لنا بعد هذا كله أن نعد نبى الإسلام أول من فكر فى مبادئ الحجر الصحى؟!

فأيده فى ذلك كل الحاضرين. وتقدم أحد هؤلاء العلماء قائلا:

لـو علمت أوربا بهذه الحكمة السـامية وعملـت بها حين اجتاحها الطاعون فى أواسـط القرن الرابع عشـر الميلادى لخفت حينئذ الخسائر التى منيت بها فى الأرواح، فقد قدر عدد الموتى الذين قضى عليهم هذا المرض بخمس وعشـرين مليونا من الأنفس، كان سـبب انتشـار المرض المشار إليه هو نقل التتار له حين نزحوا إلى جنوب روسيا سنة ١٣٤٦م، ومنهـا حملة البحارة غربا إلى حيفا فى أكتوبر سـنة ١٣٤٧م، ولجهل القوم وقتئذ بالحجر الصحى طردت البحارة من تلك البقعة فانتشر المرض فى البلاد التى نزلوا فيها، بل إن سكان سينا أنفسهم حين انتشر فيهم المـرض تفرقـوا إلى نواح مختلفة، فنشـروا المرض فـى صقلية كلها، ثم حل المرض بجنوا وبيزا فى أوائل سـنة ١٣٤٨م، وانتقل إلى إيطاليا فى نفس السـنة، وانتشر فى جنوب فرنسـا ومنها وصل إلى باريس، ومنها إلى إنجلـترا وإيرلندا وألمانيا وما جاورها ولبث الحال كذلك حتى سـنة ١٣٧٠ – ١٣٧٤م.

ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الحديث عن تزاوج الأقارب ومسـاوئه ومرت الساعات وهم يستعرضون هذا الموضوع من شتى نواحيه فانبرى لهم هذا الطالب الشرقى يقول:

ما جئتم بجديد أيضا.

فقالوا له: كيف؟

ما قلتموه الآن قاله نبى الإسلام من قبلكم.. أليس هو القائل «اغتربوا ولا تضـووا»[1]، أى لا تتزاوجوا بـين الأقارب، لئلا تضوى أولادكم فإن أولاد الغريبة أنجب وأقوى، وأولاد القريبة أضعف وأضوى.

(١) أى لا تضعفوا ويصيبكم الهزال.

نبى الإسلام فى مرآة الفكر الهندى

لقد كانت حياة محمد ﷺ موضع بحث وتحليل عند قادة الهند وكتابها وكبار مفكريها وكان **غاندى** فى طليعة هؤلاء القادة والكتاب والمفكرين، فعندما احتفل الهنود بمولد الرسول فى بونا بالهند حضر غاندى هذا الحفل، وألقى فيه كلمة خالدة تحمل إعجاب غاندى بنبى الإسلام ورسالته وعظمته نسجلها فيما يلى:

«إخوانى... ليست صداقتى مع المسلمين بنت الأمس بل ترجع إلى خمسين عاما يوم كنت فتى- ولقد كانت زيارتى الأولى لإفريقيا الجنوبية بسبب اتصالى بشركة إسلامية فى تلك البلاد- وهناك تيسرت لى الفرصة أن أتصل بعلاقة وثيقة مع أصدقاء مسلمين لم تتراخ على مر السنين، وكذلك فى الهند، فأنتم تعلمون الرابطة المتينة التى كانت بين أسرة الأخوين على وبينى- وعلى الرغم من الاختلاف البين فى المبدأ بين **شوكت على (١٨٧٣- ١٩٣٨م)** نفسه وبينى فإنه يعلم أننى دائما صديق حميم.

ولما كانت علاقتى بالمسلمين على هذا النحو من المتانة والألفة فقد شعرت برغبة لدراسة حياة الرسول الكريم ﷺ وشرعت بذلك فى إفريقيا الجنوبية، إلا إننى لم أكن فى ذلك الحين ملما باللغة الأوردية إلماما كافيا، وسجنى المتتابع أتاح لى فرصة قراءة كتب سيرة هذا النبى الكريم، وما كتبه عنه **حكيم صاحب أحمد خان**، تلك الكتب التى طلبتها وجاءتنى إلى السجن، وقرأت أيضا أحاديث صحابة الرسول وكانت هذه مترجمة إلى اللغة الإنجليزية.

وقد أدت بى هذه الدراسات إلى الاعتقاد بأن القرآن والتوراة كتابان مقدسان، فقدستهما أنا بنفسى كما أقدس كتابينا الويدا وغيتا.

لقد كان محمد نبيا عظيما وكذلك كان المسيح، وقد أصبحت أعتقد أنهما كانا لا ينشدان إلا الحق، ولا أجد جديدا فيما أقوله الآن،وكانا يخافان الله... وإنما أصف فقط ما يخامر نفسى، لقد لاقى محمد كثيرا من الاضطهادات ولكنه كان شجاعا لم يخف غير الله ولم يرهب أى إنسان.

كان النبى العظيم فقيرا زاهدا فى متاع الدنيا فى الوقت الذى كان يستطيع فيه أن يكون ثريا كبيرا لو أراد.

لقد ذرفت الدموع وأنا أقرأ تاريخ ذلك الرجل العظيم، إذ كيف يستطيع باحث عن الحقيقة مثلى، أن لا يطأطئ الرأس أمام هذه الشخصية التى لم تعمل إلا من أجل مصلحة البشرية كلها».

ولقد درس غاندى حياة المنبوذين فى الهند فتألم لحياتهم، وأراد أن يضرب للهندوس أنفسهم، مثلا طيبا، بصفته زعيما دينيا، وأراد أن يعلمهم أن طبقة المنبوذين من البشر ليسوا أنجاسا كما يعتقدون. ولكى يضرب لهم مثلا عمليا زوج ابنه الأكبر بواحدة من المنبوذين حتى يعلمهم أنه لا فارق ولا اضطهاد ولانجاسة.

وقد علق أحد كتاب الهند فقال: لقد اقتفى غاندى فى عمله هذا أثر نبى الإسلام فى تحطيم القيود الاجتماعية والفوارق الطائفية.. لقد كان غاندى نفسه يعترف ببحثه لسيرة هذا النبى وحياته، فقد قال قبل صيامه إنه يتشبه بنبى الإسلام فى التماس المثل الأعلى فى التضحية وما

فعله غاندى فعله نبى المسلمين من قبل.

فقد كانت زينب الأسـدية ذات حسب ونسب فهى ابنة عمة رسول الله، تزوجها زيد معتوق النبى ﷺ، فكان الفارق الاجتماعى كبيرا، ولم يكن هناك تقارب بين حسـبه وحسبها ونسبه ونسبها، حتى سعى زيد بعـد ذلك إلى التخلص من هذا الزواج، فنصح له رسـول الله أن لايفعل فكانت حياتـه الزوجية لا وئام فيها ولا ائتلاف، ففارقها فى النهاية. وتزوجهـا النبى من بعده لا رغبـة فى الزواج منها، بل ليضرب للعرب مثـلا صادقا، وليبدد من أذهان العرب بعـض تقاليدهم البالية، وبذلك حطم الفوارق الاجتماعية التى كانت تدعو إلى انحطاط المرأة إذا تزوجت برقيق أو معتوق.

ومـا كان عمل غاندى لتحطيـم الفوارق الاجتماعية بـين المنبوذين والهندوس إلا صورة مما فعله نبى الإسلام للأخذ بيد الأرقاء والمعتوقين.

وقـد تناول الدكتور تـارا فى كتاب له عالج فيه أثر الدين المحمدى فى الحضارة الهندية فقال:

«لقد كانت لدعوة هذا النبى وتعاليمه ومبادئه أثر واضح فى حياة من آمنـوا به.. وبدا ذلك فى وضوح وجلاء فى الهند ذاتها بعد دخول دينه واعتنـاق دعوته، لقد بدأ أثر ذلك واضحا فى احترام المرأة وفى إضعاف الفوارق بين طبقات البشـر وغير ذلك مما عرف عن شـريعة هذا النبى ودينه وتعاليمه».

ويقول الدكتور تـارا فى موضع آخر... «لا يمكن لدنية من المدنيات أن تدعى بأنها لم تتأثر من قريب أو بعيد بدعوة هذا النبى الكريم ودينه

وشرائعه، لقد كان الدكتور تارا محقا إلى أبعد حد فى هذا القول.. فأوربا بعلومهـا وآدابها وفنونها تأثرت إلى حد كبـير بهذا الدين وما تبعه من انقـلاب فكرى جديد.. وما يقال عـن أوربا يقال أيضا عن بعض مظاهر الحضارة الهندية».

وقد تناول السـيد أبو الحسن على الحسنى الندوى نائب معتمد دار العلوم بندوة العلماء بالهند شـخصية نبى الإسلام بالبحث والتحليل فى كتابه «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين» فقال:

جاء محمد هذا النبى الكريم فرأى بعين الأنبياء بشـرا هانت عليهم كرامتهم.. رأى بشـرا يعبدون الحجر والشجر.. رأى بشرا فيهم الذئب راعيا والخصم الجائر قاضيا والشيخ التقى محروما.

جـاء هذا النبـى الكريم فرأى عـادات قبيحة وأفعـالا منكرة تدفع البشـرية إلى الفناء وهوة الهلاك.. رأى معاقـرة الخمر إلى حد الإدمان، رأى الخلاعة والفجور إلى حد الفوضى، ورأى الطمع وشهوة المال إلى حد الجشع، ورأى الظلم إلى حد وأد البنات وقتل الأبناء.

جـاء هـذا النبى الكريم فرأى المواهب البشـرية ضائعة، من غير أن توجه توجيها صحيحا حتـى أضحت وبالا على أصحابها لقد أضحت الشجاعة فتكا وهمجية، والجود تبذيرا وإتلافا، والأنفة حمية جاهلية، والذكاء خديعة وطريقا إلى الشر والضلال.

جـاء هذا النبى الكريم فرأى البشـر كخامات لم تحظ بصانع ماهر، يجعل منها هيكل حضارة عظيمة.. ورآها كألواح خشـبية لم يسـعدها الحظ بنجار يحولها إلى سـفينة تشـق بحر الحياة.. ورأى الأمم كقطيع من الغنم ليس لها راع، ورأى السياسة كجمل هائج حبله على غاربه.

رأى النبـــى الكريـــم كل ذلك فنـــادى بدعوته وجاهد مـــن أجلها جهادا عظيمـــا، فخلق من الضعف قوة، ومن الظلـــم عدلا، ومن الفوضى نظاما. لقد خلق شـــعبه خلقا جديدا فكان منـــه الأمير العظيم والقاضـــى العادل والقائد العابد، والوالى المتورع، والجندى المتقى.

لقد كانت بلاد العرب وحدات مفككة، وقبائل متناحرة، وشعوبا مظلومة مضطهـــدة، فجاء هـــذا النبى فأيقظها من رقدتها وخلـــق منها خلقا جديدا، فأصبحـــت الطبقات والأجنـــاس بفضله متعاونة متســـاندة، لا يبغى بعضهم على بعض، وأصبح كل واحد فى المجتمع راعيا ومسئولا عن رعيته.. الإمام راع ومســـئول عن رعيته.. والرجل راع ومسئول عن رعيته.. والمرأة راعية فى البيت ومسئولة عن رعيتها.. والخادم راع فى مال سيده ومسئول عن رعيته.

وهكذا أصبح المجتمع الإســـلامى مجتمعا رشيدا عاقلا مسئولا عن أعماله وهكـــذا أصبح المســـلمون أعوانا علـــى الحق، أمرهم شـــورى بينهم، يطيعون الخليفة ما أطاع الله فيهم، فإن عصى الله فلا طاعة له عليهم.

ولم تأت دعوة هذا النبى لتبدل باطلا بباطل وعدوانا بعدوان، وتحرم شيئا فـــى مـــكان ما وتحله فى مكان آخر، ولم يبعث كزعيـــم قومى أو قائد وطنى لينقل حكم هذه الشعوب من يد إلى يد أخرى ولم تكن دعوته لأمة دون أخرى ولا لوطن دون وطن، بل كانت للبشـــرية كلها وللضمير العالمى كله، لم يكن ﷺ مـــن عامة المصلحين الذين يدخلون البيوت من ظهورها أو يتســـللون من نوافذهـــا لمعالجة بعض أمراضهـــا الاجتماعية، بل جاء يدعو إلى الإصلاح من بابه، فوضع على قفل الطبيعة البشرية مفتاحه، ذلك القفل الذى أعيا فتحه كل المصلحـــين لقد وضـــع مفتاح النبوة على قفل الطبيعة فانفتح على ما فيها من كنوز وعجائب وقوى ومواهب، وبذلك أصاب الجاهلية فى مقتلها.

وهكـذا أرغم العالم العنيـد أن يتجه اتجاها جديـدا يفتح به عهدا سـعيدا، ذلك هو العهد الإسـلامى الذى لا يزال غـرة فى جبين الزمن والذى عد بحق انقلابا فريدا فى نوعه.

لقد كان هذا الانقلاب غريبا فى كل شىء!!

لقد كان غريبا فى سرعته وعمقه!! لقد كان غريبا فى سعته ووضوحه. لقد كان غريبا فى قربه إلى الفهم.

ولـولا دعوة هذا النبـى العظيم لما هبت الـدول العربية من رقدتها. ولولاها ما كان الشام والعراق وما كان وادى النيل كله.. ولا كانت الدنيا كما هى الآن حضارة وعقلا وخلقا.

فهـذا التاريخ المجيد، وهذا الأدب الزاخر، وهذه الحضارة الكبيرة، وهذه الدول العربية الواسعة.. ماهى إلا فضل من أفضال هذا النبى الكريم ودعوته المجيدة.

* * *

نبى الإسلام كما يراه مولانا محمد على رئيس الرابطة الإسماعيلية بالهند

لقد تناول هذا المؤلف الهندى فى كتابه «محمد نبى الإسلام» مظاهر كثيرة من حياة هذا النبى الكريم نبدأها بأثر رسالته ودعوته فى حياة العرب أنفسهم، وكيف خلقت منهم خلقا جديدا، فهو فى هذا الصدد يقول: «ظهر النبى فى وقت كان العرب فيه قد انحدروا إلى الحضيض، فما كانت لهم معتقدات دينية صحيحة، ولا مبادئ سياسية أو اجتماعية سامية، وكانوا مفككين لا رابط بينهم، كل قبيلة وحدة مستقلة، وكل منها فى قتال مع الأخرى.

حاولت اليهودية أن تهذبهم فما استطاعت، وحاولت المسيحية فمنيت بخيبة الأمل، كما خابت جميع المحاولات السابقة للإصلاح. ولكن محمدا ﷺ استطاع فى سنوات معدودات أن يقضى على جميع مظاهر الفساد والوثنية، ووجه أبناء العرب الذين كانوا أنصاف برابرة إلى طريق الهدى والعرفان فباتوا دعاة حكمة ورشاد بعد أن كانوا دعاة وثنية وفساد.

لقد سموا بفضل الإسلام إلى ذروة الخلق الكريم، وكانت أعمالهم فى دنياهم مظهرا لحقيقة تقواهم، وبذلك دانت لهم الإمبراطوريات العظمى وذابت بحرارة إيمانهم كما يذوب الجليد بحرارة الشمس. ولم يقنعوا بغزو الأقطار الشاسعة، بل أقاموا فى أرجائها إمبراطورية عظيمة دامت اثنى عشر قرنا من الزمان.

لقد وصل المسلمون إلى ذروة الرخاء الاقتصادى والسمو الاجتماعى والنضوج العلمى.

إذن لقد كانت تعاليم النبى ناجعة صالحة للقضاء على جميع العلل الاجتماعية والمساوئ الخلقية وليس الطبيب البارع من يدعى أنه الطبيب الأول، بل الطبيب البارع من يستطيع شفاء أكبر عدد من الحالات المستعصية، كذلك المصلح الناجع ليس من يدعى أنه المصلح الأول، بل من يقوم بإصلاح العالم ويهديه إلى الطريق المستقيم. وهذا هو الذى جعل النبى فوق هامات المصلحين».

وهذا هو الذى جعل دائرة المعارف البريطانية فى إحدى طبعاتها تقول: «لقد كان محمد أظهر الشخصيات الدينية العظيمة، وأكثرها توفيقا ونجاحا».

وقد تناول رسالة النبى من ناحية الإخاء الإنسانى والسلام العالمى فقال: «لقد وضع هذا النبى أساس سلم عالمى. لم تضع الأسس التى تضمن للأفراد أن يعيشوا فى سلام جنبا إلى جنب فحسب، بل علم الناس كيف تعيش القبائل والشعوب فى سلام.

لقد علمهم كيف تعيش العقائد والأديان جنبا إلى جنب فى وئام وسلام، فعاش المسلمون واليهود والنصارى قرونا عديدة فى وفاق ووئام».

أما عن أخلاق النبى ﷺ فكتب يقول: «كانت البساطة من صفات هذا النبى، كان لا يتردد فى أن يعمل كل شىء بيده، كان يساعد زوجاته فى أعمالهن المنزلية... وكان يعنى بحيواناته ويحلبها بنفسه، وكان يشترك فى بناء المساجد وحفر الخنادق، وكان يشترى حاجياته

المنزلية بنفسه سواء أكان ذلك لبيته أم لجيرانه أم للضعفاء من النساء وكانت جميع أعماله وتصرفاته مطبوعة بطابع البساطة.

كان متواضعا زاهدا يأكل كما يأكل الناس ويجلس كما يجلسون، كان يكره أن يستقبله الناس وقوفا.. وإذا هم أحد يقبل يده سحبها وقال له: هذا سلوك قوم غيرنا مع ملوكهم.

وكان إذا دعاه عبد أو أحد الأرقاء إلى بيته لبى دعوته ليشعره باحترامه، وكان الوفاء أيضا من طبيعته، فكان يحب أصدقاءه حبا جما وكان إذا صافحهم بيده لا يكون البادئ بسحب يده.

كان يقابل كل إنسان بوجه باسم.. وهذا ما دعا جرير بن عبد الله أن يقول: «ما من مرة رأيت فيها النبى إلا وكانت الابتسامة على وجهه وكان فى حديثه متواضعا، لا ترى فيه مظاهر الترفع والكبرياء، وكان إذا رأى الأطفال يداعبهم ويحملهم بين يديه».

* * *

وكان النبى ينظر إلى الجميع نظرة واحدة، ويساوى بينهم مساواة مطلقة. لا فرق بين مسلم وغير مسلم، وصديق وعدو.. كان الجميع أمامه متساوين متشابهين.

وكانت نزاهته وأمانته وعدله مضرب الأمثال، حتى قبل نزول الوحى عليه، فكانوا يرضون به حكما فى منازعتهم، وكان أهل المدينة من وثنيين ويهود يحتكمون إليه كلما قام بينهما خلاف.

وعلى الرغم من حقد اليهود على المسلمين فقد كانا يحكمان النبى إذا وقع خلاف بين مسلم ويهودى وكان النبى يقضى لصاحب الحق دائما دون اعتبار لدينه.

وكان النبى يعامل الناس كأنه واحد منهم، لا يزيد عليهم فى شىء ولم يعرف عنه أنه وضع نفسه فى مرتبة أعلى من مرتبتهم، وحدث وهو سيد المدينة أن جاءه يهودى وكان له دين عليه، وطلب منه تسديد هذا الدين فى غلظة وخشونة، فغضب عمر ونهر اليهودى لخشونته، ولكن النبى أخبر عمر أنه كان من الواجب عليه أن ينبهه إلى دفع الدين وشكر الدائن، وأن يلفت نظر الدائن إلى طلب دينه بالحسنى!! ودفع النبى دينه إلى اليهودى وشكره، فأثرت أخلاق النبى الحميدة فيه فاعتنق الإسلام.

وحدث أن خرج النبى مع أصحابه يوما وحان موعد إعداد الطعام فقسموا العمل بينهم، فاختار النبى أن يخرج لجمع الأحطاب لقد كان سيدهم ونبيهم ومع ذلك قام بنصيبه من العمل كواحد منهم.

أما معاملاته لخدمه ففيها الدليل على عدله المطلق، لقد روى أنس أن النبى لم يزجره مرة واحدة خلال العشر سنوات التى قضاها فى خدمته ولم يذكر عنه أنه عنف خادما لخطأ ارتكبه، وما ضرب عبدا أو امرأة طول حياته.

ومن صفات هذا النبى الكريم كرمه وتسامحه خصوصا مع أعدائه وكان ذلك شيئا فريدا لم يرد له فى التاريخ مثل.

كان عبد الله بن أبى سلول عدوا ألد للإسلام والمسلمين. كان يقضى الليل والنهار فى تدبير المكائد والمؤامرات للمسلمين، وكان يحرض اليهود على العرب والعرب على اليهود، وعلى الرغم من ذلك طلب له من الله الرحمة والغفران، وخلع قميصه ليكفن عبد الله به.

أمـا أهل مكـة الذين آذوه وعذبوه فقد عفا عنهـم بعد أن عاد إليهم فاتحـا، كان فـي مقدروه أن يرد لهم بعض ما فعلـوه ولكن عفا عنهم، وتناسى ما ناله على أيديهم من عذاب واضطهاد.

وكان حبه للصدقات لا يجارى، فلا يصد السـائل مهما كانت الظروف وكان يطعـم الجائـع ولو بطعامه.. وعندمـا كان على فراش الموت وزع كل مابقـى مـن ماله على الفقراء والمحتاجين، وكان فـي مطلع حياته معروفا بعطفه العميق على الأرامل والأيتام والفقراء والمستضعفين، وكان دائم الدفاع عن حقوق النسـاء أمام الرجـال، والعبيد أمام سـادتهم والمحكومين أمام حكامهـم حتـى مخلوقات الله الصمـاء كان قلبه يفيـض نحوها بالرحمة والشفقة.

لقد تحدث عن الرجل الذى رفع الماء من البئر ليروى به عطش كلب مسـن، وقال: إنـه من أهل الجنة، وتحدث عن امرأة حبسـت قطتها وجوعتها وقال عنها: إنها تستحق العقاب والجزاء.

* * *

والآن يحلو لنا أن نتساءل هل تغيرت مظاهر حياة هذا الرسول الكريم عندما دانت له الأمور وأصبح حاكما لأمته العربية الجديدة؟

لقد ظل هذا النبى فى جميع مراحل حياته سواء أكان راعيا أم تاجرا أم قائدا أم حاكما على وتيرة واحدة.

لقد تغيرت المعايير وتبدلت الأحداث، ومع هذا ظلت نفسه العظيمة كما هى دون أن تتغير أو تتبدل.

لقد انتقل من ظل اليتيم إلى ظل المجد والسـلطان من غير أن نلحظ

عليه أى تغيير فى طريقة معيشته.. لقد بقى طعامه ولباسه متواضعا كما كان فى أيامه الأولى.

عجيب أن يملك إنسان أسباب القوة والجاه والثروة ومع ذلك لا يتعلق بها، تاركا إياها لخدمة البشرية كلها.

لقد أصبح حاكما لأمته ودولته، ومع هذا بقى بيته كما هو، لا أثاث فيه غير حصير من سعف النخيل لينام عليها. وبجانبها إناء ليشرب منه. وكثيرا ما تعاقبت الأيام والليالى بلا وقود ولا غذاء، لقد كانت مظاهر الترف وأسباب الثراء موفورة له ورهن إشارته، ومع ذلك كان زاهدا فى الحياة ليكون لأهله وقومه قدوة حسنة.

* * *

وعندما بلغ سن الخامسة والعشرين من عمره تزوج زوجته **خديجة** وهى أرملة تكبره فى السن.

لقد بقى النبى فى عشرتها حتى بلغ الخمسين من عمره وكان تعدد الزوجات وقتئذ عند العرب أمرا عاديا مألوفا وكان فى مقدوره، وهو ذو حسب ونسب، أن يتزوج من أجمل فتيات العرب وأصغرهن، ولكنه لم يفعل ولو كان ممن يثيره جمال النساء، لما تزوج أرملة تكبره فى السن، وهو فى ريعان شبابه وميعة صباه، ولما ظل معها حتى الخمسين من عمره.

وهناك دليل آخر على أن جمال المرأة وشبابها لم يكن موضع اهتمام هذا النبى الكريم لقد تزوج بجانب زوجته **عائشة** التى كانت على قدر كبير من الجمال زوجات أخريات، أكبر منها سنا وأقل منها شبابا وجمالا ونضرة، إذن لم يكن هذا النبى متأثرا بمؤثرات عاطفية واهية،

بل كان متأثرا بدوافع سامية وأغراض نبيلة.

فليس من المعقول أن الرجل الذى استطاع أن يبقى بغير زواج فى استقامة وحسن سمعة حتى الخامسة والعشرين.. وليس من المعقول أن الرجل الذى ظل من الخامسة والعشرين حتى الخمسين من عمره يعاشر زوجة تكبره سنا.. ثم يأتى فى أواخر أيامه ليفكر فى زيجات بدافع عاطفى أو ميل شخصى.

يجب أن نلقى نظرة على الحقائق التاريخية التى أدت إلى أن يتزوج النبى عدة مرات من السنة الثالثة إلى السنة السابعة للهجرة، مع أنه قضى قبل ذلك ثلاثين سنة وهو زوج لواحدة. لقد توالت المعارك بين المسلمين والمشركين.. وكان عدد المسلمين وقتئذ محدودا إلى حد كبير. وقد أضعفت الحروب نسبة الرجال إلى النساء. فكلما زاد عدد الشهداء زاد عدد الأرامل المحتاجات إلى رعاية وعناية، ولهذا تزوج بالأرامل رغبة فى رعايتهن وصيانتهن ولو كان يجرى وراء عاطفة أو لذة لتزوج أبكارا، وما كان من العسير الحصول على العذارى، فشرف عظيم أن يصبح آباء العذارى أصهارا للنبى.

ولكن تزوج بالأرامل لغاية سامية وهى العناية بزوجات أصدقائه الذين استشهدوا فى سبيل نشر دينه.

وكان للسياسة دخل كبير فى تعدد زوجاته، فتزوج بعضهن لغرض سياسى وما زواجه من **جويرية** من بنى المصطلق إلا لهذا الغرض، وما كان زواجه من **صفية** أرملة أحد سادة اليهود إلا لرغبته فى التوفيق بين المسلمين واليهود.

أمـا زواجه من **زينب** فكان لاعتبارات سـامية. فقـد تزوجها **زيد** معتوق النبى ﷺ وكان الفارق بينهما كبيرا، فكان ذلك عاملا من عوامل عدم الوفاق بينهما، فاضطر زيد إلى الفراق، فنصحه الرسول أن يتريث.. ولكن انتهى هذا الزواج بالطلاق.

ولـما فارقها **زيد** تزوجها النبى ﷺ من بعـده، لا رغبة فى الزواج، بل ليحطم بعض الفوارق الاجتماعية والتقاليد البالية، وليزيل من أذهان العـرب أن الطلاق يحط مـن المرأة المطلقة ويقلل مـن مكانتها وقد رفع بعمله هذا شأن المطلقات جميعا ولو أنه كان يريد الزواج بزينب لإعجابه بها أو رغبة إليها لما رفضها من قبل، ولما زوجها بنفسـه إلى زيد؛ فعدم زواجه منها وهى عذراء ثم زواجه منها بعد طلاقها ليقوم دليلا على أن هذا الزواج قام لاعتبارات اجتماعية قبل أن يقوم على اعتبارات عاطفية.

هـذه صـورة عن نبينا الكريم كما صورهـا مولانا محمد على الهندى وكلها تنبض بعظمة هذا الرسول وسموه وعبقريته.

* * *

بطاقة حياة
الدكتور عز الدين فراج

● هو الأستاذ الدكتور عز الدين فراج- عز الدين محمد فراج

● ولد بمحافظة سوهاج- بصعيد مصر- فى ٦ إبريل سنة ١٩١٣م.

● حصل على بكالوريوس العلوم الزراعية من كلية الزراعة، جامعة فؤاد الأول - القاهرة- فى سنة ١٩٣٦م وحصل على دبلوم الدراسات العليا فى البيولوجى سنة ١٩٤٥م.. وعلى الماجستير سنة ١٩٤٦م ونال درجة الدكتوراه فى البساتين (الخضر واقتصادياتها) سنة ١٩٥٦م.

● تدرج فى سلك الوظائف الجامعية- بكلية الزراعة- جامعة فؤاد الأول- القاهرة- فعمل معيدا سنة ١٩٣٦م.. وتولى منصب أستاذ كرسى قسم الإنتاج النباتى سنة ١٩٦٠م.. ثم عمل أستاذا متفرغا بقسمى الإنتاج النباتى والبساتين سنة ١٩٧٣م.

● تولى رئاسة لجنة وضع (دائرة المعارف العلمية المصورة للبيئة العربية العالمية للنبات والحيوان)، كما قدم للمكتبة العلمية أكثر من سبعين بحثا علميا زراعيا فى مجال زيادة الإنتاج.

● من مؤلفاته العلمية والزراعية: (الغذاء الكامل) و (تعمير الصحارى المصرية).

ولقد كلفته وزارة الثقافة المصرية بترجمة العديد من الكتب العلمية.

وشارك فى وضع جزء من (الموسوعة المصرية الرسمية عن النباتات المصرية).

● وله –أيضا– (موسوعة علمية مصرية للشباب عن الإنسان والنبات والحيوان والصناعة).

كما وضع ٢٢ جزءا من (الموسوعة العلمية المصرية المبسطة للناشئين).

● شارك فى العديد من المؤتمرات العلمية والزراعية– فى الإنتاج العلمى والزراعى والاقتصادى.

● ساهم فى تطوير الجامعات المصرية.. وفى وضع مناهج التعليم الزراعى.. ومناهج معهد المعلمين والمعلمات.. وفى تخطيط المشروعات الزراعية لمديرية التحرير.. ومشروعات مصر الخاصة بالتنمية والإنتاج الزراعى.

● عالج مشكلة العقم الكلى والجزئى فى أشجار البرقوق والكمثرى لزيادة محصولها.

● استخدم عمليات التطعيم فى زراعة الخضروات.

● فازت مؤلفاته الزراعية فى مسابقات تأليف الكتب الزراعية.

● حصل على الجائزة الأولى فى البحث العلمى سنة ١٩٥٨م.

● غير هذا الإنتاج الغزير فى الأبحاث العلمية والزراعية، قدم للمكتبة الإسلامية العديد من المؤلفات.. منها: (حياة محمد)، و(عظمة الرسول)، و(الإعجاز العلمى والإسلامى) إلى جانب أكثر من عشرة كتب فى المجالات الأدبية والاجتماعية منها (فن القراءة) و (العالم العربى الجديد) و (نحو قرية أفضل).

● حصل على الجائزة الأولى فى التأليف الأدبى والاجتماعى– أعوام سنة ١٩٤٧م وسنة ١٩٤٨م وسنة ١٩٥٥م وسنة ١٩٦٣م وسنة ١٩٦٨م.

● من الكتب التى ترجمها، وقدمها للمكتبة العربية والإسلامية فى هذا الكتاب الفذ: (نبى الإسلام فى مرآة الفكر الغربى.)

الذى طبع سنة ١٩٥٣م بمطبعة الجهاد، ويومها كان عالمنا الجليل مدرسا بجامعة فؤاد الأول القاهرة الآن).

رحمه الله رحمة واسعة، ونفعنا بما قدم لأمته من زاد فكرى صالح للعطاء[1].

* * *

(١) انظر (الموسوعة القومية للشخصيات المصرية)- الجزء الأول- الطبعة الثانية- ص ٦٨ إصدار وزارة الإعلام- الهيئة العامة للاستعلامات.

موضوعات الكتاب

• تقديم بقلم الدكتور محمد عمارة

١- بطاقة حياة .....

٢- بين يدى هذا الكتاب ٣

• مقدمة ١٩

• العالم قبل الدعوة المحمدية ٢١

• نبى الإسلام فى مرآة الفكر الإنجليزى.....٢٦

«توماس كارليل» ٢٦

«برنارد شو» يكرم نبى الإسلام ٣٥

- نبى الإسلام كما يصوره «بورسورث سميث».....٤٢

- نبى الإسلام كما يراه «السير وليم ميور».....٤٤

• نبى الإسلام فى مرآة الفكر الفرنسى.....٤٨

«لامرتين» شاعر فرنسا الكبير ٤٨

نبى الإسلام كما يصوره «إميل درمنغم».....٥١

• نبى الإسلام فى مرآة الفكر الأمريكى.....٥٤

عظمة الرسول كما يراها «واشنطون أرفنج» ٥٤

نبى الإسلام كما يصوره «ر.ف. بودلى».....٥٩

• نبى الإسلام فى مرآة الفكر الروسى.....٦٧

تولستوى يتحدث عن نبى الإسلام ٦٧

• محرر المرأة.....٧١

● الإسلام والسيف ٧٧
● نبى الإسلام فى المؤتمرات الدولية ٨٢
● نبى الإسلام فى مرآة الفكر الهندى ٨٩
● نبى الإسلام كما يراه مولانا محمد على ٩٥
● بطاقة حياة ١٠٣

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ٢١١٥٤
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7903-8

١ / ٢٠١٣ / ٥٧

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)